التحبير فى التذكير

نفائس فى القيم والسلوك مستوحاه من أسماء الله الحسنى

تأليف

الإمام زين الإسلام عبد الكريم القشيرى

(٣٧٦ هـ - ٤٦٥ هـ)

حققه وقدم له وعلق عليه

الدكتور ابراهيم بسيونى

استاذ الفكر الاسلامى - جامعة عين شمس

مكتبة عالم الفكر

ميدان سيدنا الحسين - القاهرة

(ت ٩٢٣٦٦٠٩ - ٤٠٤٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

التحبير في التذكير

نفائس في القيم والسلوك مستوحاة من أسماء الله الحسنى

التحبير فى التذكير

نفائس فى القيم والسلوك مستوحاة من أسماء الله الحُسنى

تأليف

الإمام زين الإسلام عبد الكريم القشيرى

(٣٧٦ هـ - ٤٦٥ هـ)

حققه وقدم له وعلق عليه

الدكتور ابراهيم بسيونى

استاذ الفكر الاسلامى - جامعة عين شمس

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

مكتبة عالم الفكر

ميدان سيدنا الحسين - القاهرة
(ت ٤٠٢٠٤٩٢٣٦٦٠٩)

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٣/٧٤٥٨

* الترقيم الدولى I. S. B. N. 977-254-028-2

مصر ج.م.ع

المركز الرئيسي ميدان سيدنا الحسين - الأزهر الشريف

هاتف : ٩٣٦٦٠٩ - ٩٣٧٦٧١

برقياً : ماكتا فكر - ص ب الغورية ١١٦٣٩ رقم ٥٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أهميـــة هـــذا الكتـــاب للفيلسوف اليونانى العظيم عبارة تقول :

إن كل علم يستمد قيمته من موضوعه .

وموضوع الأسماء والصفات الإلهية ــ الذى هو مدار هذا الكتاب أجل الموضوعات وأهمها .

ولقد عولج هذا الجانب فى كتب التراث الإسلامى فى مضـامين التفسير ،وفى دائرة علم الكلام ، ونحو ذلك .

ولكنه عند النظرة المدققة لم يخرج عن الإطار النظرى ..

أما هنا فالقشيرى يخرج به من دائرة النظر إلى دائرة العمـل ، بمعنى أنه لو قدم إليك الاسم أو الصفة التى تتعلق بالذات الإلهية فإنه فى تخطيط منهجى رائع يدخل بك إلى دائرة التطبيق العملى ؛ كأنه يقول لك : والآن وبعد أن (علمت) المعـانى العظمى التى يحتويها الاسم أو الصفة عليك أن (تعمل) على الانصـاف بكذا وكذا ، وأن (تقوم) بكذا وكذا .

وهذا المنهج فى الواقع هو الأصل الإسلامى للمعرفة ، فالإسلام لا يخاطب العقل وحده وإنما يخاطب السلوك والتخلق .. وبهذا ينمـاز الإسلام عن الفلسفات المألوفة التى لا تكاد تخرج فى معظمها عن الجانب البحثى الجدلى النظرى .. وهى مسائل لا شك فى أنها ذات قيمة غير منكورة ، ولكن الإسلام يطمح إلى ما هو أبعد من ذلك ، ولعل أصدق

ما نورده فى هذا السياق قول السيدة عائشة وهى تصف الرسول المصطفى صلوات الله عليه وسلامه « كان خلقه القرآن » أى أن (الكتاب) قد أصبح (سلوكاً) عنده صلوات الله عليه وسلامه .

وإذاً فالقشيرى حينما يؤسس منهجه الذى سنشرحه بالتفصيل فى هذه الجزئية الدينية الخاصة على أساس العلم ثم العمل إنما يصدر عن الروح المميزة للدين الإسلامى .

ولقد وقع للإمام أبى حامد الغزالى بعد ذلك بنحو نصف قرن أن قرأ هذا الكتاب فأعجبه الموضوع والمنهج ، وعزم على أن يؤلف فى هذا الموضوع كتابه الجميل « المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » والقارىء لهذا الكتاب الأخير يرى الغزالى قد التزم منهج القشيرى التزاماً جاداً . ونورد لك هنا نصاً نقتطفه من الغزالى وهو يوضح علو قدر هذه الدراسة وخطورتها ، وكيف أنها ليست بالمهمة السهلة التى يمكن أن يخب فيها أى شخص ، بل هى مهمة ثقيلة تحتاج إلى نفاذ البصيرة والإخلاص ، والحذر الشديد ... أليست كما يقول محاولة إفصاح عن أسرار مرتبطة بالحق سبحانه ؟ ! إنها « ركوب لمتن الخطر » !

يقول الغزالى سألنى أخ فى الله تتعين فى الدين إجابته شرح معانى أسماء الله الحسنى ، وتواردت على أسئلته تترى ، فلم أزل أقدم فيه رجلا وأؤخر فيه أخرى تردداً بين الانقياد لاقتضائه قضاء لحق إخائه ، وبين الاستغناء عن التماسه ، آخذاً سبيل الحذر ، وعدولا (عن ركوب متن الخطر) ، واستقصاراً لقوة البشر عن درك هذا الوطر ..

ويستمر الغزالى قائلا : « كيف لا .. وللبصير عن خوض مثل هذه الغمرة صارفان : أحدهما أن هذا الأمر فى نفسه عزيز المرام ، صعب المنال غامض المدرك ، فإنه فى العلو من الذروة العليا ، والمقصد الأقصى الذى تتحير الألباب فيه ، وتخفض أبصار العقول دون مباديه فضلا عن أقاصيه .. ومن أين للقوى البشرية أن تسلك فى صفات الربوبية سبيل البحث والفحص والتفتيش ، وأنى تطيق نور الشمس أبصار الخفافيش .

والثانى أن الإفصاح عن كنه الحق فيه يكاد يخالف ما سبق إليه الجماهير، وفطام الخلق عن العادات ومألوفات المذاهب عسير ، وجناب الحق يجل عن أن يكون مشرعاً لكل واد ، أو يتطلع إليه واحد بعد واحد »
ا هـ كلام الإمام الغزالى .

فإذا كان ذلك هو إحساس الغزالى فما بالك بالرائد القشيرى وهو يسلك هذا السبيل لأول مرة ، فنحن نشعر نحوه بالإحترام الفائق ، ونسعد بأن نقدم للقارىء هذا العمل ونفتح أمامه الآفاق بأن يزداد معرفة به إذا ضم المحاولة الغزالية إلى المحاولة القشيرية .. فالموضوع خليق بكل الإهتمام .

ولقد أسعدنى — بهذه المناسبة — أننى طوال أكثر من عشرين عاماً منذ قدمت التحبير للمرة الأولى أتابع البرامج الإذاعية والتلفزيونية والصحفية التى اتخذت من « نور الأسماء الحسنى » موضوعاً لها ، وكيف أنها استفادت من هذه النصائح التى قدمتها حين الاغتراف من هذا المنهل الفياض ، فكنت أشعر بسعادة الجندى المجهول وأنا أشاهد أو أقرأ أو أسمع ، وتغاضيت كثيراً جداً عن عدم التنويه بالمصادر وأصحابها .. فالمهم أن تنتشر المعرفة بين الناس وعند الله — سبحانه — الجزاء الأوفى ...

* * *

ولما كان القشيرى قد أقبل على هذه المسألة العظيمة بفكر المتكلم وذوق الصوفى وثقافة اللغوى فإننا نشعر ونحن نقدم هذا الكتاب بضرورة التصدى للصلة بينه وبين علم الكلام بادىء ذى بدء .

شغلت قضية الأسماء الإلهية حيزاً ضخماً من علم الكلام بل لا نبالغ إذا قلنا إن علم الكلام كله مدين لصفة واحدة من صفات الله وهى « الكلام » ، ونعنى بها هل القرآن الكريم — وهو كلام الله سبحانه — قديم حيث إن الله قديم أم أنه — أى القرآن — مخلوق على أساس أنه نزل فى زمن معين على رجل معين فى مكان معين !!

قد تبدو القضية للقارئ العادى هينة لينة ، ما هو لا يعلم مقدار ما اشتجر من الخلاف بين أسلافنا ، وبخاصة بين الأشاعرة والمعتزلة ، ولا يدرى كم من الفتن ثارت ، وكم من المحن ألم ببعض عظمائهم أمثال أحمد بن حنبل رضى الله عنه ..

صح إذاً أن نثير الموضوع باختصار غيرمخل كما تصورها المتكلمون ، وفى هذا فضلا عن ضرورته المنهجية توطئة لفهم القشيرى .. صاحب هذا الكتاب .

يقف المعتزلة من قضية الصفات الإلهية موقفاً جريئاً صريحاً ، فهم ينفون الصفات منعاً للتعدد من ناحية وللتركيب (أى الصفة والموصوف) ولذلك يسمون أنفسهم أهل التوحيد ، فالله (وحده) هو الموصوف وهو الصفة وهكذا قامت الذات الإلهية منذ الأزل ، فلا مدعاة (للإضافة) أى إضافة — من جانب الإنسان — الله ، فقد قامت الذات هكذا ولم يكن فى الأزل واصف ... إلى آخر آرائهم التى عادت تتباين إلى حد ما بين زعماء فرقتهم ، ولا نريد أن نثقل على القارئ هنا .. فالموضوع مبسوط فى المطولات المتخصصة لمن يريد الاستزادة .

أما الأشاعرة — والقشيرى منهم والغزالى أيضاً — فإنهم يثبتون الصفات ، ويلتمسون لكل صفة معنى خاصاً بها حتى يثبتوا أن هنـــاك جدوى من كل وصف .

وفى ذلك يقول القشيرى فى هذا الكتاب عند « السميع والبصير » : سمعه وبصره — سبحانه — صفتان له ، زائدتان على (علمه) خلافاً للقدرية ، وهما إدراكان آخران له ، فلا يخرج مسموع عن ســـمعه ، ولا موجود عن بصره ، ولا يحجبهما شئ ، فيســـمع السر والنجوى ، ويبصر ما تحت الثرى ويرى فى لطائفه أن « القرآن يتحدث عن الله سبحانه مرة بذاته : « ويحذركم الله نفسه » ومرة بصفاته « ألم يعلم بأن الله يرى » .

هى إذاً قضية كلامية ، ويكون للقشيرى بتحبيره فضل السبق فى نقلها من محيط المتكلمين إلى محيط الصوفية ، وصبغها بصبغة هذا المحيط الجديد •

ومن هنا تأتى أهمية هذا الكتاب إذ يوضح موقف الصوفية من قضية تناولها غيرهم ، وعندئذ تصلح المقارنة بين منهجى التناول ، وهى فرصة ثمينة أمام الصوفى كى يقدم رؤيته لغير ذلك من جزئيات الفكر الدينى •• وهى بلا شك رؤية متميزة وليست مباينة لأن الأصل واحد ، فالشريعة والحقيقة وجهان لموضوع واحد ، وهى رؤية تثرى المباحث الدينية بما تضيفه من روحانيات خالصة ومذاقات شفيفة •

وقد شعر الغزالى بالتهيب كما أوضح النص السابق وهو يقوم بعملية النقل من ذلك المحيط إلى هذا المحيط ، وقد أتاحت أسبقية القشيرى له فى هذا الخصوص حين قدم هذا الكتاب أن يخف عنه العبء ، وتتحدد الرؤية ويتضح « المقصد » •

وقد ثبت لنا بما يدع مجالا للشك أن هذه الاستفادة قد تحققت فعلا ، وآية ذلك أن أبا حامد قد سار على نفس النهج ونفس المنهج ، وسلك نفس الترتيب فى استخلاص نتائجه عند كل اسم وكل صفة •

وهو مثله استخدم ذات الأدوات لأدوات : اللغة والاستقاق ، والكلام ، والحديث ، وأسانيد الشيوخ •

وهو مثله — وهذا هو المهم فى الكتابين — قد استبط من المعارف المحصلة آداباً وفضائل مطلوب من المرء بعد أن (يعلم) أن (يتخلق) بهـا •

ولكننا مع ذلك نعترف بأن للغزالى فضل التفوق فى التفصيلات والتفريعات ، وهذه مسألة متوقعة فإن كتاب القشيرى غير مسبوق •• والأعمال الرائدة ليس فى مقدورها الإحاطة التامة بكل شىء •

ويبقى بعد ذلك أن هذه الجهود الصوفية تظل معبرة عن وجهة نظرهم فى مقابلة الجهود الفلسفية والكلامية وغيرهما خصوصاً فى موضوع من أخطر قضايا الفكر الدينى .

ويقتضينا الانصـــاف ألا يجرفنا الحماس إلى كل ما يصـــدر عن الصوفية فى هذا المجال ، ولنضرب على ذلك مثالا واحـــداً حتى يعرف القارىء موضوع أقدامه من الوهلة الأولى .

ونعنى به مذهب عبد الكـــريم الجيلى أحد تلامذة ابن عربى ، وأحـــد القـــائلين بوحـــدة الوجـــود ، وقـــد انعـــكس تأثره بهـــذه النظرية على تصوره للموضوع الذى نحن بصـــدده ، فانجرف الجيلى إلى أودية بعيدة ، وإلى نتائج على جانب شديد الخطورة مثل إرجاعه تعدد الأديان والمعتقدات إلى تعدد الصفات الإلهية ، وإلى « الأسماء التى تجلى بها الحق فى مظاهر الخلق ، فقد تجلى الحق باسم الهـــادى لقوم فهداهم ، وبالمضل لقوم فأضلهم ولو بقى اسم من الأسماء أو صفة من الصـــفات معطلا لم يتحقق معناه فى صورة من صـــور الوجود ، ولكن تجلى الحق كامل ،ولهذا أرسل الله الرسل الذين يطيعونه فى صورة الهادى ويعبده الذين يعصونه فى صورة الاسم (المضل) ، ولكنه سبحانه عين كل معبود يعبد » .

* * *

* سار القشيرى فى دراسة الأسماء الحسنى حســـب الترتيب الذى ورد فى الحـــديث الشريف المـــروى عن أبى هريـــرة إذ قال : [قال رسول الله ﷺ : إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحـــداً إنه وتر يحب الوتر من أحصاها دخل الجنة : هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبـــار المتكبر الخالق البارى المصور . الغفار القهـــار الوهاب الرازق الفتاح العليم . الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور . العلى الكبير الحفيظ .

المقيت الحسيب • الجليل الكريم • الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين الولى الحميد المحصى المبـــدىء المعيد المحيى المميت الحى القيوم • الواجد الماجد الواحـــد الأحد الصمد القـــادر المقـــدم المؤخر الأول الآخر الظـــاهر الوالى المتعالى البر التواب المنتقم العفو الرءوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغنى المغنى المانع الضار النافع النور الهادى البـــديع الباقى الوارث الرشيد الصبور] •

وقد حرصنا على إثبات الحديث الشريف هنا حيث لم يذكره المؤلف فى صدر كتابه •

أما الخطة فى تأليف الكتاب فإنها تتلخص فى مراحل أساسية تجرى بصفة إجمالية على النحو التالى :

يبدأ مبحث أى اسم أو صفة بمقدمة لغوية مختصرة يناقش فيها أصل الكلمة واشتقاقاتها ، ومعنى كل اشتقاق محتمل • ولا ينسى أن ينوه بما يطرأ على المعنى الأصلى للفظ وهو ينتقل من الاستعمال الأصلى إلى معان دلالية عبر الاستعمال الحياتى له وهذا شىء يعرفه علمـــاء اللغة فى باب التوسع المجازى ، لأن الأصول المادية للكلمات مثل (برك) الجمل تتجاوز أثناء استعمال الناس لها عبر العصور إلى معنويات أرقى ثم أرقى حتى تصل فى النهاية — إن كانت هناك نهاية — إلى أن تستخدم فى (تبارك) الله سبحانه أحسن الخالقين ، وغير خاف ما بين (بروك) الجمل وارتباط ذلك بنزول الخيرات وانثيال النعم وبين المعنى الراقى الذى وصلت إليه • وفى هذا السياق لا يحرمنا القشيرى عند كل دلالة جديدة أو متجددة من استفادات فى توظيف الدلالة فى توجه الســـلوك المطلوب من الإنسان — فهذا هو هدف من الأهداف البعيدة لتصنيفه — كما ذكرنا من قبل •

ويكون محصل الجهد اللغوى أخيرا رصـــيد هائل من الأخلاقيات المرتبطة بالأسماء والصفات الإلهية ويبدأ ذلك عادة بقوله :

(•••••• ومن آداب من عرف هذا الاسم بهذا المعنى أن يفعل كذا وكذا ، وألا يفعل كذا وكذا) •

نعم •• ذلكم هو الغرض الأصلى من الكتاب كله ، علم يعقبه عمل ، ومعرفة ينجم عنها سلوك •• وهنا يبرز دور القشيرى الصوفى بعد دور القشيرى اللغوى ، فالأصل عن الصوفية أن العمل الإنسانى (بمقاماته وأحواله) إذا تم على الوجه المطلوب وقيض الله سبحانه له من الفضل والمنة أن يكون العبد على الطريق الصحيح فى المنهج العرفانى •

وكأن القشيرى بهذا الصنيع أراد أن يثبت أن المعتزلة حينما ذهبوا إلى نفى الصفات ــ كما أوضحنا ذلك فى عجالة ــ قد حرموا الإنسان من مزايا معرفية وسلوكية جديرة بأن تحترم فى كنف هذا الموضوع الخطير الجليل « مبحث الأسماء والصفات الإلهية » فهو لم يخرج به من الحيز الجدلى النظرى فقط بل آلى على نفسه أن يثبت لكل ذى عين وذى قلب أن مبحث الأسماء والصفات أشبه بالينبوع الصافى الذى لا ينفد معينه،وأن كل قطرة فى تلاحقه تتماسك مع قطرات تتقدموقطرات تتلو ، فى نسيجمتناغم أخاذ ، فما للعبد من جهود فى المعرفة تتلوها نعم من صاحب الجولة سبحانه •

وتتألق كل خطوة فى الاستنباط بأسانيد متتالية لشيوخ الطريقة وأئمة الحقيقة • وعادة ما تبدأ الخطوة بتعبير « فإن قيل » أى ويمكن القول • وهو يضيف إلى ذلك كثيراً من الآراء الكلامية وبعض الآراء الفقهية • ويأتى فى مقدمة ذلك كله بطبيعة الحال استشهاده بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة •

وبهذا يصبح الكتاب نموذجاً جيداً لإعطاء فكرة صادقة عن هذا الشيخ الجليل رضوان الله عليه ، وآفاق ثقافته •

ونشعر بأهمية التوقف عند مرحلة دقيقة من مراحل هذه الدراسة هى اهتمامه بإبراز التفرقة بين هذه المصطلحات حتى ننير للقارىء طريقه :

(أ) اسم الذات :

ووه اسم (الله) « اسم لم يتسم ولن يتسمى به أحد سواه سبحانه فهو له وحده ، ومعه « الرحمن » « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن » .

(ب) صـــفة الذات :

وهى الصفة التى قامت بها الذات النورانية منذ الأزل ، ســـواء وجدت المخلوقات أم لم توجد ، فليس فيها ما يشعر بغير الذات .

مثل صفة (الباقى) فليس فيهـــا شعور بالغير أو السوى إنهـــا (صفة البقاء ، صفة من صفات الذات ، ويجب أن تشتد العناية بمعرفة أن المخلوق لا يجوز أن يكون يتصف بصفات ذات الحق ، فلا يكون عالماً بعلم الحق ، ولاقادراً بقدرته ، ولا سميعاً بصـــيراً بسمعه وبصره ، ولا حياً بحياته ، ولا باقياً ببقائه لأن الصفة القديمة لا يجـــوز قيامها بالذات الحادثة كما لا يجوز قيام الصفة الحديثة بالذات القـــديمة .. وهذا هو أصل التوحيد) .

(جـ) صـــفة الفعـــل :

وهى الصـــفة التى تتجلى وتعمـــل فى المخلوقات « كالوهـــاب » « والرزاق » والمحيى والمميت .. فهى مرتبطة بمن يوهب وبمن يرزق وبمن يحيا وبمن يموت بقدرته القادرة الفاعـــلة المؤثرة المنتشرة فى كل خبايا الكون جباله وســـهوله وبحاره وشموسه وكواكبه ، فى النبـــات والحيوان والإنسان .. هذا الكون كله مرتبط (بأفعاله) الإلهية فيه منذ خلقه إلى فنائه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

فيقول مثلا عند (الوهاب) : « الوهاب المعطى والوهاب مبالغة منه وهو من صفات الفعل » .

ولكن القشيرى هنا يفتح باباً صغيراً ليدخل بنا إلى إضافة هامة هى أن الوصف الواحد من هذا القبيل الأخيرة يمكن أن ينصرف إلى

الذات الإلهية فيكون لذلك ما يتناسب مع معانى (المطلق) ، ثم يمكن أن يستخدم تارة أخرى لكى يوصف به المخلوق وهنا يستوجب المعانى الملائمة للمخلوق (النسبى) وبكلمات أخرى يمكن أن يعود وصف الفعل إلى وصف الذات إذ أريد فهم اتصاف المولى به خذ مثلا موقفه عند « الجبار » : وصف الجبار إذا كان مأخوذاً من نخلة جبارة أى لا تنالها الأيدى فمعناه فى حقه أنه لا تناله يد جائرة ، ولا ينازعه معارض ، فيكون من صفات ذاته لأنه إخبار عن وجوده على وصف السؤدد والجلال • وقيل : الجبار المتكبر من حيث المعنى ، فالجبروت التكبر ، يقال جبار من الجبرية والجبروت ، إلا إن التكبر فى وصفه عز وجل محمود ، وفى وصف الخلق مذموم ، وهو بهذا المعنى من صفات ذاته أيضاً •

وقيل الجبار بمعنى المجبر وهو المكره يقال جبرته على الأمر وأجبرته بمعنى واحد ، وإن كان أجبرته فى معنى الإكراه أكثر وأشهر استعمالا من جبرته ، فمعناه فى حقه أنه لا يوجد من خلقه إلا ما يريده شاءوا أو أبوا فيكون من صفات الفعل •

وقيل الجبار بمعنى المصلح من قولهم جبرت الكسر إذا أصلحته وعلى هذا يكون من صفات الفعل أيضاً ، والاسم إذا احتمل معانى مما يصح فى وصفه سبحانه فمن دعاه بذلك الاسم فقد أثنى عليه بجميع تلك المعانى » •

وخذ مثلا موقفه عند الملك « ورد فى القرآن العزيز الملك ومالك الملك ، ومالك يوم الدين والمليك وهو مبالغة من المالك كالعليم من العالم ، المالك مشتق من الملك وأصل الملك فى اللغة الشد والربط ومنه قولهم ملكت العجين إذا بالغت فى عجنه ، ومنه سمى عقد المصاهرة إملاكاً لأنه تربط به الوصلة بين الزوجين • وحقيقة الملك عند أهل التحقيق القدرة على الإبداع والإنشاء ، فلا مالك — فى الحقيقة — إلا الله ، وهو فى غيره مجاز ، فإذا ثبت لزم العبد أن يتبرأ من الإضافة إلى نفسه ،

فلا يقال بى ولا لى ولا منى ، ولهــذا قيل : التوحيد إسقاط الياءات يعنى ياءات الإضافة إلى نفسه » •

ويتصل بالمباحث اللغوية الموظفة فى هذا الكتاب جانب آخر يهم أن نوضحه هو أنه يلتمس فروقاً دقيقة بين الأوصاف الإلهية التى تبدو مترادفة للوهلة الأولى ولكنه يحسن التفرقة الدقيقة بين كل لفظة وقرينتها المتقاربة حتى يوجه سهماً جديداً من كنانته نحو (المعتزلة) كأنه يقول لهم وحتى هذه المتقاربات لها عندنا توجيهات ذات جدوى ، وهو هنا بارع فى اللغة من ناحية ، وأشعرى مخلص من ناحية أخرى •• وهو قبل ذلك كله صوفى ذائق يملك عدسة كاشفة تتلقى اللغة بصورة رهيفة شفيفة •

فهو مثـــلا يميز بين « المعطى » و « الوهاب » وبين « العفو » و « الغفور » ، وبين « الحسيب » و « الكافى » •• ونحو ذلك مما نتركه لمعاناة القارىء ومتعته الذهنية والتذوقية •

بقى أن نتحدث عن الكتاب من حيث هو ذخيرة من ذخائر الصوفية ، فإنك لو سألت الشيخ عن مقاصده البعيدة لأجابك ــ كما نتصور ــ إننى أكتب لأهل الذكر حتى تصبح الأسماء والصفات ذات آفاق لا تتناهى عند المتأملين ، السائحين ، الهائمين •• بحيث لا يكون هناك حيز من هذه الأسماء وتلك الصفات كى ينطلقوا فى رحباتها اللانهائية •

نعم •• إن لهذا الكتاب قيمة عظيمة فى الرياضة الصوفية ، بحيث لو بدأ العبد بترديد الاسم بلسانه •• وذلك هو ذكر اللسان فإنه ينبغى أن يسمح لذكر القلب بالبدء لأن قيمة ذكر اللسان لا تكاد تفى بالمطلوب ، أما ذكر القلب المنبنى على التأمل والتذوق والاستشفاف فهو الذى يحفل بالمعانى السامية • ثم هو الحـــافز على ما يتوجب على هذا الذاكر من التخلى عن سلوك والتحلى بســـلوك آخر ، وهذا هو رصـــيد الآداب والفضائل المندرج تحت هذه الأســـماء والصفات أشـــبه بمنجم مملوء بالنفائس يقدمه الشيخ رضوان الله عليه للذاكرين •

وبهذا الفهم نستطيع أن ندرك مغزى قول الشيخ نقلا عن الأئمة « أخف أنواع الذكر ذكر اللسان ..

ذكرتك لا أنى نسـيتك لحظـة

وأيسر معـانى الذكر ذكر لسـانى »

ونستدرك هنا أننـا حينما نحصى الصـوفية بشىء من الاهتمام أننا نستبعد طوائف العابدين من الحساب ، فإن المعانى التى يقـدمها القشيرى صالحة لكل من له وجدان دينى صـوفياً كان أو غير صوفى ، وهذه خصيصة قل أن نلحظها عند كثير من كتاب التصوف .

خذ مثلا قوله عند صفة « الغفار » وهو يدخل بنا إلى مقام التوبة وكيف يتسع فضل الله لكل تائب « ... عبدى لو أتيتنى بتراب الأرض ذنوباً أتيتك بتراب الأرض مغفرة ما لم تشرك بى . وفى خبر مسند أن رجلا يؤمر به إلى النـار فإذا بلغ ثلث الطريق .... أنظر النص فى الكتاب .

ونلاحظ أن المؤلف قد منح عناية خاصة للأسماء الإلهية التى لها موحيات خاصة فى البيئة الصوفية مثل :

الحق — الولى — المحيى — البديع — الجميل — الجليل ونحوها ونستطيع أن نضم أقوالهما فى كنفها إلى آرائه فى مصنفاته الصـوفية الخالصة عنـد حديثه عن الولاية والحيـاة والموت والبدعة والجمـال والجلال .. وبذا يتحصل لدينا رصيد متكامل إذا قمنا بدراسة تحليلية لآرائه فى تلك الموضوعات .

فمما يقوله عند « الحق » : ... « وأكثر ما يجرى على لسان هذه الطائفة من أسمائه سبحانه وتعالى « الحق » لأنهم ارتقوا من شهود الأفعال إلى شهود الصفات ثم من شهود الصفات إلى شهود الذات ، ومن آداب من عرف أنه الحق أى ذو الحق آثر حقه على حقـه ، وعلامة صدقه فى ذلك الإيثار أن يسخر له خلقه المبين فى وصفه وهو الذى

يوضحه الحق بقلبه فيميزه عن الباطل بالحجج والبراهين ، ويبين له من مكنونات العدم ما لم يخطر ببال أحد من دقائق آثار الحكمة وعجائب متعلقات القدرة ، ويبين لذوب الواجدين على الخصوص شهود الربوبية بما يزيل الشبهة .

وتستطيع من هذا أن تدرك أى فرق هائل بين الصدى الذى تتركه لفظة (الحق) على وجدان هذا الصوفى السنى الحريص وبين الصدى الذى يتردد فى جنبات واد آخر من أوديته التصوف الإسلامى وأعنى عند أرباب وحدة الوجود كابن عربى وتلاميذه ، أولئك الذين يفهمون أن (الحق) تعنى أنه لا موجود على الحقيقة إلا الله ، وأن الوجود كوصف لغيره باطل ، فالله هو كل شىء ، والموجودات لا حقيقة لوجودها ، بمعنى أن المتكثر النسبى إذا وصف بالوجود فذلك على سبيل المجاز لا على سبيل الحقيقة .

ويمضى أهل وحدة الوجود فى نظريتهم إلى البحث فى تجلى الله فى الموجودات الأرضية والسماوية ، وبهـــذا يكون تمام كماله وجماله وجلاله . أما ما نشهده فى العالم من نقص وزوال فذلك لا يؤثر فى العظمة الإلهية إنما هو من قبيل أحكام التعين والتنزل والإنزال (انظر معجم Larouse مـــادة Panthelsme وانظر أيضـــا كتاب (الوحـــدة الوجودية) لبهاء الدين العاملى أحد تلاميذ ابن عربى) .

وفى ذلك يقول ابن عربى « الظاهرون بأمر الله لا يرون سوى الله فى الأكوان ، والأكوان عندهم مظاهر الحق » الفتوحات جـ ٢ ص ١٥ .

وعند « الولى » يقول القشيرى : « الولى فى وصفه سبحانه هو المتولى لأحوال العباد وأعمالهم .

وهو فعيل بمعنى فاعل ، يقال فلان ولى فلان يليه ولاية فهو وال أى نصير ، وإنما سمى أولياء الله لأنهم أنصار دينه وأشياع طاعته .

وقد يكون الولى فى وصف العبد بمعنى المواظب على الطاعة ، وتكون

الولاية بمعنى المحبة ، والله ولى المؤمنين أى محبهم » •

ويتضمن هذا الرأى اتجاهاً هاماً نحو تحديد معنى الولاية ، فهو يربط بين الولاية والطاعة إذا وصف بها صفوة القوم ، ومعنى ذلك أن هذا اللقب لا يمنح جزافاً ، وبذلك يخرج من نطاقها الأدعياء الجهلاء الذين يذهبون إلى اقتراف أعمال خارجة عن مألوف الناس ، بل فى بعض الأحيان يتنكرون للشريعة وما توجبه على المرء من فروض بدعوى أنهم محو ، وأنه ليس عليهم عتب ولا لوم (انظر افتتاحية الرسالة القشيرية) وهؤلاء يصيبون الطريقة وأهلها بسهام قاتلة لأن أحكام التعميم من جانب أعداء الصوفية تنهال ظالمة على كل التصوف اهله — كما وقع فى ذلك كثيرون عبر العصور •

كذلك يتضمن هذا الرأى نزعة نحو التفاؤل بالنسبة للعصاة ، فالشيخ على هذا يفتح باب الأمل أمام التائبين ، ويحفزهم لأن الله سبحانه فى انتظارهم ، يتقبلهم بعظيم فضله (ويتولاهم) بغفرانه •

وتتصاعد هذه النزعة المتفائلة مرات أخرى فى هذا الكتاب عند الصفات التى ترهب العبد مثل (المنتقم) و (الجبار) و (الضار) و (المانع) و (المميت) فتأخذ هذه الأوصاف عند الشيخ طريقاً مفروشاً بالأمل زاخراً بالإحسان ملبياً للرجاء ، وعلى هذا يمكن القول أن الصوفية يمنحون الأوساط الدينية فرصة الإسعاد والانتعاش بما يفسحون به المجال لإقالة العثرات واستئناف المسير •

استمع مثلا إلى قوله عند (المنتقم) : « الانتقام افتعال من النقمة وهى غاية الكراهية للشىء وغاية العقوبة عليه أيضاً ، والله تعالى يغضب فى حق خلقه بما لا يغضب فى حق نفسه ، فينتقم لعباده بما لا ينتقم لنفسه فى خاص حقه » • ثم استمع فى هدوء إلى الشيخ وهو يصرح : « وقد يستجير العبد بربه عقيب زلة فتدركه الوجهة قبل حلول الانتقام ، فيؤويه إلى كنف ستره ، ويعجل له المغفرة بلطيف بره » •

و « الجبار » عنده هو الذى يجبر الكسر أى زلة العبد .

و « المميت » يقابل « المحيى » ولكن أساس المقابلة عند الشيخ أن (أهل هذه الطائفة أطلقوا لفظى الإحياء والإماتة على حالتى الفرحة والترحة والمنحة والمحنة تجوزاً وتوسعاً كما يقال فلان أحيا فلاناً بجوده ، وأمات فلانا بصده عنه . لهـذا قال أهل الحقيقة : من أقبل مع الحق أحياه ، ومن أعرض عنه أماته وأفناه . ومن كان فناؤه فى الله فهو حى وإن هلك ، ومن كانت حياته فى المخالفة فهو ميت — وإن عاش) .

وكان شرح « البديع » فرصة طيبة انتهزها المؤلف لينادى بما عرف عنه من مقاومة شديدة وعداء صارخ للبدعة والمبتدعين : (البديع معناه المبدع ، وكل من فعل فعلا لم يسبق إليه فهو مبدع ،ومنه سميت البدعة ، لأنها قول أو فعل غير مسبوق فالله تعالى .. مبدع الأشياء لا على مثال تقدم ، ولا من أحد تعلم .. ومن آداب من عرف ربه بهـذا الاسم أن يجتنب البدعة ويلازم السنة فالبدعة كل ما ليس له أصـل فى الكتاب والسنة وإجماع الأمة) .

ويساعد كتاب **« التحبير فى التذكير »** بطريق مباشر على تفسير بعض قضايا التصوف وإشكالات التعبير الذى قد يبدو غريباً منبهاً فى فى أحيـان أخرى . ونضرب لذلك مثلين فقط أحدهما للحـلاج والآخر للشبلى .

فأما قولة الحلاج الشهيرة « أنا الحق » فيمـكن فى نظرنا فهمنا واغتفارنا لها إذا استفدنا من موقف القشـيرى فى شرح أسـماء الله الحسنى وصفاته ، فالحلاج لم يقل (أنا الله) — ونحن قد أبنا أن (الله) اسم الذات الذى لا يصـح لأحد من البشر أن يتسمى به أو يتصف به أو حتى أن يقترب به على نحو من أنحـاء الامتزاج أو الحلول أو النبوة .. الخ فهو كما يقول الشيخ فى عبادته الدقيقة « للتعلق دون التخلق » أى هو خاص متعلق بالرب وحده وليس منصرفاً بحال نحـو

الخلائق • أما ما عدا ذلك كالعادل والملك والواهب •• الخ فيمكن فى رأى القشيرى أن تنصرف للإنسان ويكون المقصود المعانى النسبية التى تليق بالإنسان ونستبعد حينئذ كل المفاهيم المطلقة الخاصة بالألوهية •

وطبقاً لذلك فالحلاج لم يرتكب إثماً وبالتالى لا تثريب عليه ، إنه ليس إلا أحد العارفين الذين يغلب عليهم الشهود فى لحظات الفناء فتجرى المعرفة على لسانه للدلالة على عظمة الله المشهودة تماماً كما تجرى تلك العظمة فى الشجرة والبحر والجبل •• وكل مظـاهر الكون الدالة على التوحيد وعلى (الحق) لأن المعرفة كما يراها القشيرى فى موضع آخر من الكتاب (تقتضى استصغار الأقدار — سوى قدرة ،ومحو الأذكار سوى ذكره ، فإن نطق نطق بالله ، وإن سكت سكت به) أما الحلاج فى لحظاته العادية وبعيداً عن الشهود (فليس الحق) — هكذا يمكن تذوق هذه القولة التى كانت—كما قيل — من أسباب إعدامه فى بغـداد عام ٣٠٩ هـ •

أما عبارة الشبلى (أنا النقطة التى تحت الباء) فهى عبارة أونص صوفى غامض يحتاج إلى الغوص فى موضوع « الأسماء الحسنى وصفاته » — فهو فى غلبة الشهود — مثل صديقه الحلاج — يجرى على لسـانه إذا نطق النطق بالله فلو تصور القـارىء الكريم البـاء هكذا (بـ) مثل بسم الله الرحمن الرحيم فإن مقصود الشبلى أن النقطة التى تحت الباء هى رمز للذات الإلهيـة ، فهى منفصـلة عن الكون الذى ترمز إليـه التعويجة ، والتعويجة بدونها لا معنى لها فكما أن النقطة هى التى تعطى للتعويجة قيمة فإن الله — رغم استقلال ذاته عن الكون — يعطى للكون معنى •• فالله هو معنى الكون •

ولكن التعويجة فى ذات الوقت لا تخرج عن كونها مجموعة من النقط المتلاصقة •• وكل واحدة من النقط فى هذه الحالة رمز لصفة من صفات أفعال الله فى الكون •

فكأن الله خارج عن الكون بذاته ، داخل فيه بصفاته وأظن الكلام أصبح واضحاً مفهوماً بعد عرضنا للأسماء والصفات فى هذا التقديم •

وأخـــيراً ..

فإنه إذا كانت بعض الفلسفات المتأثرة بالثقافة اليونانية تضع ضمن مبادئها التشـــبه بالخالق — عز وجل — فى حدود الطـــاقة البشرية فإن القشيرى قد أبان فى (التحبـــير) نماذج لآداب عظيمـــة ، وقيم عالية مستوحاة مباشرة من معرفة الأسماء والصفات الإلهية بحيث لو استجمع الصوفى هذه الآداب كان متخلقاً بفضائل تعينه على أن ينمحى عن نفسه وعن الكون وعن كل الآثار والأغيار ، وتحثه على أن يحث خطاه نحـــو العتبات الإلهية .

ولعلى بهذا الكتاب أكون قد قدمت للقارىء شيئاً غالياً من تراثنا العظيم ، شيئاً له فوائد فى التخلق والسلوك فضلا عن الفهم والتعرف إلى أهل الطريقة وعلومهم ، لأننا كثيراً ما نتهم اتجاهاتهم بما هم بعيدون عنه كل البعد .

والمطلوب منا فقط أن نحسن ما نختاره حين نقرأ عنهم .

نســـخ الكتـــاب

والأصل أن هذا الكتاب مردود إلى نسختين متباعدتين فى المكان ، فأما الأولى فهى مخطوطة بدار الكتب المصرية .

— التيمورية الفن : مجاميع تحت رقم ١٩٦ ومذيلة فى نهايتها باسم ناسخها : عبد المنعم سلامة الدنجاوى الشافعى الأزهرى .

وأما النسخة الأخرى فقـــد وجدناها — وهى أكبـــر حجماً من سابقتها — فى مكتبـــة الفردوس بمدينة دوشانبيه عاصـــمة جمهورية طاجكستان ، وتقع بعد نقلها فى ثمان وسبعين صفحة .

وقد قومنـــا النص عليهمـــا ورمزنا للمصرية بالحـــرف (مـــ) وللسوفيتية بالحرف (س) .

التعريف بصـــاحب الكتاب

ظل الناس مئات السنين لا يكادون يعرفون القشيرى إلا من خلال « الرسالة » التى اكتسبت من الشهرة ما جعلت الباحثين يكتفون بهـا للإشارة إليه وإلى آرائه المعتدلة فى التصوف ، فلا يخلو بحث فى الشرق أو فى الغرب إلا ويعرج عليها على أساس أن صاحبها رجل سنى معتدل يدلى برأيه فى موضوعات التصوف الشائكة التى كثيراً ما أختلف الناس حولها .

ولهذا نشعر بالحاجة بأن نزود القارىء بإلمامة مختصرة تثبت ذلك وتوضح مدى ثقافته فى المعقول والمنقول ، وننوه إلى جوار ذلك بغزارة إنتاجه حتى يعرف الجميع أن « الرسالة » رغم أهميتها قد ظلمته حين أوقفت شهرته عليها .

ولم يكن ليتاح لنـــا ذلك لولا أننى اخترته موضوعاً لأطروحـــة الدكتوراه فى كلية الآداب بجامعة القاهرة ، وكان على أن أستجمع تراثه بقدر الوسع من كل أصقاع الدنيا حتى تأتى نتائج البحث جديرة بتغيير كثير من الأحكام عن التصوف وتدعيم البعض منها وتوضيح الغامض وإلقاء الضوء على المشكل .

ولقـــد حالفنى التوفيق لتحقيق هذه الغـــاية حينما ذهبت للعمل أستاذاً بالجامعات السوفيتية ، وأخترت أن يكون عملى بين جمهوريتى طاجكستان وازبكستان حيث المخطوطات الإسلامية الرائعـــة ترقد فى المكتبات العامة والخاصة منذ مئات السنين ، وقد أخفى بعضها فى القرى النائية خوفاً من زحف المغول الذين داسوا بأقدامهم الســـوداء تراث الأمة الإسلامية ، وأحرقوا وغرقوا روائع ما خلفت فى كل العلوم .

نقترب من القشـــيرى ..

فنعلم أنه ولد فى ربيع الأول من عام ٣٧٦ هـ فى قرية صغيرة اسمها « أستوا » تجاوز المدينة العظيمة نيسابور التى هى فى إيران الآن .

ونستعجل الأحداث فنجد أنه ينتقل إلى ربه تعالى فى عام ٤٦٥ هـ . ومعنى هذا أنه عاش ما يقرب من تسعين عاماً فى أخريات القرن الرابع وشطراً كبيراً من القرن الخامس الهجرى ، وهى فترة يعرفها المؤرخون بأنها فترة اضطراب تاريخى ولكنها فترة التألق والابتكار ووضع القواعد فى العلوم الإسلامية ، حيث وصلت إلى مرحلة النضـــج عبر القرون السابقة .

واسمه الكامل عبد الكريم بن هوازن عبد الملك بن طاحة بن محمد القشيرى.وكنيته أبو القاسم ولقبه زين الإسلام وشهرته القشيرى ، وهو عربى النسب من جهة أبيه ومن جهة أمه ، فهو من سلالة الفاتحين الذين قدموا من الجزيرة العربية واتجهوا نحو المشرق .

ويتلقى علومه الأولى فى القرية وينبغ فى الحساب .

فلما حدثت اضطرابات إقتصادية ومالية فى بلاده أوفدوه مع لفيف من لداته إلى نيسابور ليتعلم الحساب .

ولكن نيسابور تشده إلى مجامع العلوم المعروفة فى عصره حيث يتولى كبار الشيوخ تدريس التفسير والحديث والفقه والكلام فينجذب إلى هذه المجامع ، وينبغ فى دراسته على نحو يلفت إليه أنظار أساتذته ، فيشجعونه ويوجهونه ، لأنهم أعجبوا كثيراً بأنه يجمع إلى جانب نجابته العلمية خصال الزهد والعفة والورع والتقوى .

وكان من شيوخه ابن فورك والاسفراييني ومن أصدقائه أبو عبد الرحمن السلمى والبيهقى وأبو المعانى الجوينى إمام الحرمين .

ولكن .. يحدث حادث جديد .. إذ يلج إلى القشـــيرى مجلس أبى على الدقاق الذى كان يحاضر فى علوم التصوف ، والرقائق والدقائق، والمقامات والأحوال .. فيشعر الشـــاب أن هذا هو الوسط الذى كان يتمناه ، وحين طلب إلى شيخه أن ينصحه بالتزام أحد الطريقين : علوم الظاهر أم علوم الباطن أشار عليه شيخه الجديد أن يحاول الجمع بين

الاثنين فكلاهما محصول هام لعلوم الشريعة وعلوم الحقيقة .

ولكن يأتى وقت يعجز القشيرى عن هذا الجمع فيرتبط بالدقاق نهائياً ، ويصر على أن يختار طريقة فقد اطمأن إلى ما استوعب من علوم أهل الظاهر .. فيقر بالدقاق ويزداد حباً له ثم يرشحه للزواج من إبنته فاطمة منفضلا إياه على كل من تقدم لها ، ويتم الزواج الموفق ، وينجب القشيرى ستة من الأبناء كلهم أئمة وكلهم عبادلة إلى جوار ابنته أمة الرحيم أم عبد الغافر صاحب تاريخ نيسابور .

وقد خلفت هذه الثقافة فى علوم المعقول والمنقول آثاراً بعيدة المدى فى تشكيل آرائه ، وحسن موازينه ، ودقة أحكامه ، فهو لم يدخل التصوف أمياً بل على قدر هائل من ثقافة عصره مما مكنه من حسن الدفاع عن أهل الحقيقة حتى فى المواضع الشائكة التى يساء فهمها فى بعض الأحيان .

ثم إن الانكبات على كل هذه الثقافات لم يترك له فراغاً يعانى فيه ما يعانى الشباب من ضغوط وعقد نفسية ، وآية ذلك أنك لو ثابرت على قراءته من خلال مصنفاته لا تجد شيئاً من ذلك وراء هذا الباحث الجاد الباحث عن الحقيقة المطمئن النفس ، وحينما ارتقى إلى مرتبة الشيوخ كان ينصح مريديه نصائح لو جمعناها لكانت وحدها رصيداً هائلا فى تربية الشباب المسلم فى كل عصر .

وقد عمل القشيرى لكسب عيشه منذ عهد مبكر ، فلم يكن عالة على أحد حتى إذا وصل إلى الثلاثين من عمره صدر الأمر بتعيينه مدرساً فى مسجد المطرز يومين كل أسبوع ، وفيما عدا ذلك كان ينصرف إلى التأليف دون انقطاع ، فوضع وهو فى هذه السن تقريباً تفسيراً كاملا اسمه « التيسير فى التفسير » وهو تفسير ينبنىء عن براعته فى علوم الفقه والأحكام والكلام فضلا عن اللغة والآداب ، وهو إلى جوار ذلك فيه لمحات صوفية تبشر بأن وراءه فى المستقبل صوفياً ورعاً .

الأمر الذى تجلى بعد ذلك فى بقية مؤلفاته على نحو واضح .

وقد استطعنا بتوفيق الله أن نستجلب من الأماكن البعيدة مخطوطات ثمينة لهذه الكنوز نشرنا بعضها محققاً ومشروحاً ، ولقيت عند القارىء الكريم خطوة مما دعا إلى طبع بعضها عدة طبعات ، الأمر الذى يدل على أن عشاق الثقافة الرفيعة مازالوا هم الخير الكامن فى الأمة •

ومن هذه الكتب لطائف الإشارات الذى هو مهتم بما يخرج من الآيات الكريمة من إشارات بعيدة تفوق العبارات ويقع فى ستة أجزاء كبيرة ، وقد أخرج فى آخر طبعة له فى ثلاث مجلدات ضخمة يحوى كل مجلد جزئين •

وله « المعراج » و « التحبير فى التذكير » وترتيب السلوك فى طريق الله تعالى ، وله •• شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة ، والتوحيد النبوى ، « وحياة الأرواح والدليل على طريق الصلاح والفلاح » وله « اللمع » و « الفصول » ونحو القلوب الكبير ونحو القلوب الصغير ، والمقامات الثلاثة وآداب الصوفية •• إلى أن نصل إلى خمس وعشرين كتابا وبحمد الله وتوفيقه بدأنا فى نشر كتبه الكبيرة ، أما الكتب ذات العناوين الجزئية كما هو واضح للقارىء عند قراءة الثبت السابق فهى لم تقع فى أيدينا بعد ، نعهد بأن نقف لها بقية العمر والبصر والعافية إن شاء الله •

فإن الشىء المحقق الذى لمسناه طوال عشرتنا معه خلال نصف قرن أننا غمرنا ببركاته وأفضاله ، وفتح الله لنا مغاليق الأمور ، وأبسط شىء من ذلك نيلنا للأستاذية مرتين بفضل هذه الثروة الروحية النفيسة التى تفوق ذهب الأرض كلها •

نفعنا الله سبحانه ونفع الناس به وسدد خطانا على طريق الخير إنه سميع مجيب ،

د• إبراهيم بسيونى
أستاذ الفكر الإسلامى — بجامعة عين شمس

بسم الله الرحمن الرحيم

(ولله الأسماء الحسنى)

رب يسر

هذا كتاب « التحبير فى التذكير » الذى ألفه الإمام ، العالم العامل ، الزاهد العارف أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى قدس الله روحه ، ونور ضريحه .

فصل[1]

قوله تعالى :

« ولله الأسماء الحسنى » .

وصفها بالحسنى لما تتضمنه وتدل عليه من صفات العلو والعظمة والكبرياء ، أو لما يستحقه الذاكر لها ، والداعى بها من جزيل الثواب وحسن المآب .

واشتقاق الاسم من السمو أو من السمة ، فمن عرف أسماء الله تعالى يجب اتصافه بها ، فتعلو همته عن عبودية غير الله ، فتتم بذلك عبوديته . ومن عرف اسم ربه نسى اسم نفسه ، وتنعم بروح أنسه ، قبل وصوله إلى دار قدسه ، وسمت رتبته ، وعلت فى الدارين منزلته ، فمن أجل قدر الله أجل الله قدره . قيل إن بشراً الحافى[2] كان فى بدايته من الشطار فرأى يوماً قرطاساً فيه اسم الله تعالى مكتوب ، فرفعه ونظفه

(١) فى م وردت (فضل) .

(٢) هو أبو نصر بشر بن الحارث الحافى من مشاهير زهاد مرو ، سكن بغداد ، ومات بها عام ٢٢٧ هـ ، وكان كبير الشأن حتى قيل لم يخلق بعده مثله ، ومن أقواله : لا يحتمل الحلال السرف ، ولا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس (طبقات السلمى) .

واشترى بدرهم طيباً فطيبه ، فقيل له فى النوم : يا بشر ، طيبت اسمى فوعزتى لأطيبن اسمك فى الدنيا والآخرة . وقيل لبشر : لم تمشى حافياً ؟ قال : لأن الأرض بساطة فأعظم ببساطه ! قيل لم يخرج من الدنيا أحد مثل ما خرج[٣] منهـا بشر لأنه وهب ثوبه فى مرضه ، ومات فى ثوب استعاره .

قيل لبعضهم متى يصير الفتى بليغاً ؟ فقال إذا ذكر محبوبه فأثنى عليه ، وقيل يصدق عكس هذا .

---

(٣) وردت فى م (مثل ما دخل فيها) والأصح هو هذا الذى ورد فى س لاستقامة المعنى به .

فصـــــل

قوله تعالى :

« فاعبده واصطبر لعبادته » •

يدل على أن الحال وإن صفت لا تكفى إلا باقتران صفاء[٤] العاقبة بها ، ولهذا قيل لا يفوتكم صفاء الأوقات فإن تحتها غوامض الآفات وقيل فى معناه :

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسـنت ... ولم تخف سوء ما يأتى به القدر
وسالمتك الليـالى فاغتررت بهـا ... وعند صفو الليـالى يحدث الكدر

فكم من شجرة أورقت وأزهرت وما أثمرت ، وكم من مشهور بعبادته مغرور بصفاء حالته ، بدا له من خفايا سابقته ما لم يكن فى حسابه • نعوذ بالله من سوء الخاتمة • والاصطبار نهاية الصبر ، ومن صبر ظفر ، ومن لازم وصل ، ومن أدمن قرع باب يوشـك أن يفتح له ، وقيل فى معناه :

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ... ومدمن القرع للأبواب أن يلجـا

وقيل أيضاً :

وقل من جـد فى أمر يحـاوله ... واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

قوله تعالى :

« ليس كمثله شىء » •

قال الواسطى : « ليس كذاته ذات ، ولا كفعله فعل ، ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللفظ اللفظ » • وهذا القول يجمع جوامع مسائل التوحيد •

تبارك وتعالى قيل تعظم وتقدس ، وقيل تفاعل[٥] من البركة وهى

---

(٤) وردت فى م (وفا) والمعنى يستقيم بما ورد فى (س) .
(٥) فى م وردت (منه) والأصح كما جاء فى س .

النفع والزيادة ، وقيل الخير الكثير فى كل شىء ، وكل آية احتملت وجوهاً وليس بينها تناف ولا تضاد[٦] ولا انعقد الإجماع على أن المراد منها البعض فهى على العموم ، وكل من ذكر الله بإسم من أسمائه ، وأثنى عليه بنعت من نعوته لزمه أن يطالب نفسه بمقتضى ذلك الإسم ، وموجب ذلك الذكر .

عن جعفر الصادق : « من طلب ما لم يخلق تعب ولم يرزق . قيل وما ذلك ؟ قال : الراحة فى الدنيا » ، وقيل فى معناه :

يطلب الراحـــة فى دار الفنـــا　　　خاب من يطلب شيئاً لا يكون

---

(٦) فى م وردت (ولا تضرر) ، والمعنى لا يستقيم بها .

فصـــل

فى معنى اسم « الله »

قيل إنه غير مشتق وهو أحد أقوال الخليل ، ويحكى أن الشافعى رضى الله عنه أنه قال به ،وكثير من أهل الحق . ولم يسم به غيره تعالى وتقدس ، ولهذا قال بعض المشايخ : كل اسم من أسمائه يصلح للتخلق به إلا هذا الإسم فإنه للتعلق دون التخلق .

وقيل هو مشتق ، ثم اختلفوا فى المعنى الذى هو مشتق منه اختلافاً كثيراً موضعه كتب العربية .

قيل : قل من يوقف الدعاء عن الإخلاص — ثم لا يستجاب له ، حكى أن رجلا باع جارية فندم على بيعها ، واستحى أن يظهر حالتـه للناس فكتب حاجته فى كفه ، ورفعها إلى السماء ، فلما أصبح قرع الباب عليه رجل ، فقال له : من أنت ؟ فقال : مشترى الجارية ومعى الجارية .

فقال : إن كنت تردها فاصبر حتى أرد لك الثمن .

فقال : لا أريد الثمن ، فإنى أخذت خيراً منه ، لأنى رأيت البارحة فى منامى يقول الله تعالى : إن البائع ولى من أوليائنا ، وقد تعلق قلبه بها ، فإن رددتها عليه أدخلناك الجنة .

كان الشبلى[1] يقول كثيراً : يا دليل المتحيرين زدنى تحيراً .

---

(١) هو ابو بكر دلف بن جحدر الشبلى خراسانى الأصل ، بغدادى المولد والمنشأ ، واصله من اسروشنة ومولده كما قيل سامرا ، تاب فى مجلس النساج ، وصحب الجنيد ، وكان فقيها على مذهب مالك عاش سبعاً وثمانين سنة وتوفى عام ٣٣٤ هـ ، وللشبلى أقوال جليلة الشأن فى المقامات والأحوال ، وله ايضـا شطحات ، وله اشعار كثـيرة فى الحب الالهى . (عن طبقات السلمى) .

وقال ذو النون المصرى[٢] رحمه الله : المعرفة أولها التحير ثم الاتصال ثم الافتقار ثم الحيرة •

قال يحيى بن معاذ[٣] رحمه الله : لو دارت ألسنة العارفين مع الناس كما تدور قلوبهم مع الله لقيل إنهم مجانين •

وعلامة صحة العارف ألا يقع منه فى أحكام الشريعة تقصير فى جميع أحواله ، فإن من لم تحفظ له أوقاته فى أداء ما كلف به — وإن كان مغلوباً — فذلك لنقص فى حاله •

وقيل للشبلى : ما علامة صحة حالك ؟ فقال : إنه لا يجرى على فى حال الغلبة ما يخالف حال الصحو •

قال يحيى بن معاذ : ما أشد تعلق الرياء بالقلوب ! فإنه لو دخل عليك صبى لتغيرت لأجله ، وحسنت ظاهرك بسببه !

قال المشايخ من أعجب بنفسه حجب عن ربه ، والإعجاب هو رؤية المقام ، واستكبار القدر والجاه ، واستكثار الطاعة والنظر إليها ، ونسيان بالحضور والإخلاص • ولو لم يكن لترك الإعجاب موجب إلا قصة المعاصى السالفة فى جميع العمر بالنظر إلى طاعة تندر أحيانا ، ولا تتصف الحضور والإخلاص • ولو لم يكن لترك الإعجاب موجباً إلا قصة إبليس حيث قال : أنا خير منه ، فجرى عليه ما جرى • وقصة قارون حين خرج على قومه فى زينته معجباً مفتخراً فخسف به • وقصة فرعون حين قال : « أليس لى ملك مصر » — لكان فى ذلك كفاية فى الزجر والمنع •

(٢) ذو النون المصرى اسمه ثوبان وقيل الفيض بن ابراهيم كان أبوه نوبياً توفى ٢٤٥ هـ ، ورد المتوكل فى سعاية فلما وعظه بكى المتوكل ورده مكرماً الى مصر ، ولذى النون آراء عظيمة فى المعرفة والعارف تزخر بها رسالة القشيرى وطبقات السلمى .

(٣) يحيى بن معاذ الرازى خرج الى بلخ واقام بها مدة ورجع الى نيسابور ومات بها عام ٢٥٨ هـ ووه نسيج وحده فى وقته وله لسان فى الرجاء خصوصاً وكلام فى المعرفة (رسالة القشيرى) .

وفى بعض الكتب إن السمكة التى عليها الأرضين أعجبت بنفسها كيف أطاقت حمل الأرضين مع ثقلها فقيض الله تعالى لها بعوضة لسعت أنفها فأصابها وجع شديد فسكنت والبعوضة بين عينيها لا تجسر السمكة أن تتحرك من خوفها .

ومن أوصاف العارف ألا تأخذه فى الله لومة لائم ، فيكون بالحق ناطقاً ، وبحق الله قائماً ، وفى دين الله قوياً ، لأن المعرفة تقتضى استصغار الأقدار سوى قدره ، ومحو الأذكار سوى ذكره ، فإن نطق نطق بالله ، وإن سكت سكت به ، وأفضل الأشياء كلمة حق عند من يخاف ويرجى .

وحكى أنهم فيما مضى كانوا يعبدون شجرة ، فخرج رجل مؤمن من بيته وأخذ معه فأساً ليقطع تلك الشجرة غيرة فى الدين وحمية ، فتمثل له إبليس فى صورة رجل ، وقال : إلى أين تذهب ؟

فقال : أقطع تلك الشجرة التى تعبد من دون الله . فقال له : أترك وأنا أعطيك كل يوم درهمين ، إذا استيقظت وجدتها تحت وسادتك ، فطمع الرجل وتركها وانصرف ، فلما أصبح لم يجد تحت وسادته شيئاً ، هكذا ثلاثة أيام ، فخرج مغضبا ومعه الفأس ليقطها ، فاستقبله إبليس فقال : إلى أين تذهب ؟ فقال : أقطع تلك الشجرة ، فقال : إرجع فلو دنوت منها لقطعت عنقك ! لأنك فى المرة الأولى أتيت خشية الله فما كان أحد يقدر على منعك ، وفى هذه المرة أتيت بداعية الغضب الذى بدا لك من فوت الحظ فى الدراهم ، فارجع فإنك لا تقدر عليها !

ومن أوصاف العارف أن يحتمل الأذى بطيب نفس من كل الخلق ، ولهذا قال سهل بن عبد الله التسترى(٤) : « الصوفى من كان دمه هدراً

(٤) أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين فى علوم الرياضات والاخلاص وعيوب الأفعال توفى عام ٢٨٣ أو ٢٩٣ ومن كلامه : الناس نيام فاذا انتبهوا ندموا ، واذا ندموا لم تنفعهم ندامتهم . أدنى الأدب أن تقف عند الجهل ، وآخر الأدب أن تقف عند الشبهة . الله قبلة النية ، والنية قبلة القلب ، والقلب قبلة البدن ، والبدن قبلة الجوارح ، والجوارح قبلة الدنيا (طبقات السلمى) .

وملكه مباحاً » • واعلم أن الخلق فى الدنيا جيرانك أو رفقاؤك فى سفر الآخرة فأحسنهم خلقا أشرفهم قدرا • حكى عن مالك بن دينـــار أنه استأجر داراً من يهودى ، فحول اليهودى كنيفه إلى بيت يلى جدار تلك الدار ، وكان الجدار مشقوقاً ، وكانت النجاسة تدخل إلى دار مالك ، وتقع فى محرابه ، وقصد اليهودى بذلك إيذاء مالك ، ومالك ينظف محرابه كل يوم من تلك النجاسة ويكنسها ولا يقول لليهودى شـــيئا ، فتعجب اليهودى من صبره ، فدخل عليه يوماً وقال : ما الذى صبرك على مقاساة هذه المشقة ؟ فقال : قول نبينا ﷺ مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه • فأسلم اليهودى وحسن إسلامه •

وأما أقوال شيوخ الصوفية فى معنى هذا الإسم (اسم الله) فكثيرة ، وأكثرها رموز تحتاج إلى بيان وتفسير ، فمن ذلك قول الشبلى !! ما قال أحد الله ســـوى الله ؟ ، أى لأن كل من قاله قاله بحظ •• ومتى تدرك الحقائق بالحظوظ ؟ إ معناه أن ذكر الخلق له لا يشبه ذكره لذاته المقدسة، والشىء الذى يقل قدره يعد لا شىء بالإضـــافة ، إلى ماله قدر • وقال أبو سعيد الخراز[٥] : من الذاكرين من جاوز حظوظ نفسه ، ووقع فى نسيان حظه من الله تعالى ، ونسيان حاجته منه جل سناؤه ، فلو تكلمت أعضاؤه وجوارحه ومفاصله لقالت الله الله لله ، أصاب أحدهم حجر فى رأسه فشجه فوقع دمه على الأرض فانكتب على الأرض الله الله • وحكى أن أبا الحسين النورى[٦] بقى سبعة أيام قائما لم يأكل ولم يشرب ولم ينم ، وهو يقول الله الله فأخبر الجنيد بذلك فقال : أنظروا •• أمحفوظة عليه أوقاته أم لا ؟ فقيل له : إنه يصلى الفرائض • فقال : الحمد لله

---

(٥) الخراز من اهل بغداد صحب ذا النون والسرى مات ٢٧٧ هـ من أقواله : كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل . وقال : صحبت الصـــوفية ما صحبت فما وقع بينى وبينهم خلاف قالوا : لم ؟ قال : لأنى كنت معهم على نفسى (رسالة القشيرى) .

(٦) النورى خراسانى الأصل صحب السرى والقصاب توفى عام ٢٩٥هـ (طبقات السلمى) .

الذى لم يجعل للشيطان سبيلا • ثم قال : قوموا نزره فإما نستفيد منه أو نفيده ، فدخل عليه فقال : يا أبا الحسن • ما الذى دهاك ؟

فقال : أقول الله الله •• زيدوا على •

فقال له الجنيد : انظر ••• هل قولك الله بالله أم بقولك أنت ؟ فإن كان بالله فلست القائل له ، وإن كان قولك لنفسك فأنت مع نفسك ••• فما معنى الوله والحيرة ؟

فقال : نعم المودب أنت ••• وسكن ولهه •

وقال بعضـــهم الألف من هذا الاسم (يعنى الله) إشـــارة إلى الوحدانية ، واللام الأولى إشارة إلى محو الإشارة ، واللام الثانية إلى محو المحو فى كشف الهاء •

وحكى أن الشبلى قال فى مجلس الجنيد فى ولهه : (الله) فقال له الجنيد يا أبا بكر الغيبة حرام • قيل : معناه إن كنت غائباً فذكر الغائب غيبة ، وإن كنت حاضراً فهو ترك الحرمة •

وقال أبو سعيد الخراز قلت لبعضهم ما غاية هذا الأمر ؟

فقال : (الله) قلت : ما معنى قولك (الله) ؟

قال : معناه اللهم دلنى عليك ، وثبتنى عند وجودك ، ولا تجعلنى ممن يرضى بجميع ما هو دونك عوضاً عنك ، وأقر فؤادى عند لقائك •

فصـــل

فى معنى : « لا إله إلا الله »

فى الخبر من قال آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة • وفى الخبر : لا إله إلا الله مفتاح الجنة وإنما يكون العبـــد قائلا لا إله الا الله فى الحقيقة إذا كان قائلا بقلبه ، وفى الخبر : من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة ،إذا كان عارفاً ، معناه إذا كان عارفاً بربه ، وكل النـــاس يحملون قوله مخلصــاً على أنه أراد إذا مات على الإخلاص • وأهل الإشارة قالوا إذا كان مخلصاً فى الحال فى قوله كان داخلا فى الحال فى جنتـــه •

قال الله تعالى :

« ولمن خاف رب جنتـــان » •

قيل جنة معجلة وهى حلاوة الطـــاعات ، ولذة المناجاة ، والأنس بفنون المكاشفات ، وجنة مؤجلة وهى فنون المثوبات ، وعلو الدرجات •

قال بعض المشايخ معنى : لا إله إلا الله نفى ما يستحيل كونه وإثبات ما يستحيل فقده •

وقال رجل لبعضهم لم تقول : الله الله ولا تقول لا إله إلا الله ؟ فقال : لا أنفى به ضداً • فقيل : نريد أعلى من هذا فقال : لا تجرى على لسانى كلمة الجحود فقيل نريد أعلى من هذا فقال : قل الله ثم ذرهم ، وزعق فخرجت روحه ، فادعى أوليـــاؤه على الشبلى دمه وحملوه إلى الخليفة ، فأرسل إلى الشبلى من يسأله عن دعواهم ، فقال الشبلى : روح حنت ورجت[1] ، فدعيت فأجابت •• فما ذنبى ؟ فصاح الخليفة من وراء الحجاب : خلوه •• لا ذنب له •

---

(١) هكذا فى (س) أما فى (م) فهى (ورنت) •

فصـــل

فى معنى اسمه ((هو))

إعلم أن هذا الاسم عند هذه الطائفة إخبار عن نهاية التحقق ، وهو عند أهل الظاهر مبتدأ يحتاج إلى خبر ليتم الكلام ، وعند أهل الطريق لا يحتاج لأنه مفيد ولأنه كلام تام بدون شيء آخر يتصل به أو يضمرو ذلك لاستهلاكهم فى حقائق القرب ، واستيلاء ذكر الحق على أسرارهم فلا يسبق إلى قلوبهم غيره ، ويكتفون به عن كل بيان .

قال الإمام أبو بكر به فورك[١] قدس الله روحه : (هو) حرفان هاء وواو ، فالهاء تخرج من أقصى الحلق وهو آخر المخارج ، والواو تخرج من الشفة وهو أول المخارج فـ (هو) إشارة إلى ابتداء كل حادث منه وانتهاء كل حادث إليه ، وإليه الإشارة .

بقوله تعالى :

((هو الأول والآخر)) .

وقال بعضهم : رأيت بعض الوالهين فقلت : ما اسمك ؟ فقال : هو ، فقلت : من أنت ؟ فقال : هو ، فقلت : من ابن يحيى ؟ فقال : هو ، فقلت : من تعنى بقولك هو فقال : هو ، فما سألته عن شيء إلا قال هو ، فقلت : لعلك تريد الله ، فصاح وخرجت روحه .

وقال بعض أهل الإشارة : إن الله تعالى كاشف الأسرار بقوله

---

(١) هو شيخ من شيوخ القشيرى فى الأصول والكلام ، وفد الى نيسابور قادماً من العراق ، فالتف من حوله الخاصة والعامة ، وصفه عبد الغافر الفارسى حفيد القشيرى بأنه ذو بركة ، ويستسقى به ، ويستجاب الدعاء عنده (طبقات الشافعية للسبكى ، وفيات الأعيان لابن خلكان) .

« هو » ، وكاشف القلوب بما عداه من الأسماء[٢] .

وقيل كاشف الهيم[٣] بقوله « هو » ، والمهيمن بقوله « الله » ، والعلماء بقوله « أحـــد » والعقلاء بقوله « الصـــمد » والعوام بقوله « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد »[٤] .

---

(٢) القشيرى يرتب الملكات الباطنية تنازلياً على هذا النحو : سر السر ، السر ، الروح القلب ثم النفس والعقل .

(٣) الهيم جمع هائم مثل الخشع جمع خاشع .

(٤) هذا لون من التفسير الاشارى الذى عرف به القشيرى .

فصـــــل

فى معنى اسم « الملك »

ورد فى القرآن العزيز الملك ، ومالك الملك ، ومالك يوم الدين ، والمليك .

قال تعالى :

« فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

وهو مبالغة من المالك كالعليم من العالم ، والمالك مشتق من الملك ، وأصل الملك فى اللغة الشد والربط ، ومنه قولهم ملكت العجين إذا بالغت فى عجنه ، ومنه سمى عقد المصاهرة إملاكا لأنه تربط به الوصـــلة بين الزوجين ، وتحقيق الملك عند أهل التحقيق القدرة على الإبداع والإنشاء ، فلا مالك فى الحقيقة إلا الله وفى غيره مجاز ، فإذا ثبت لزم العبد أن يتبرأ من الإضافة إلى نفسه ، فلا يقول بى ولا لى ولا منى ، ولهـذا قيل : التوحيد إسقاط الياءات يعنى ياءات الإضافة إلى نفسه .

وقيل لبعض المشايخ ألك رب ؟ فقال : أنا عبد وليس هو مولى لى ، من أنا حتى أقول لى ؟!

قال بعض الأمراء لبعض الصالحين : سلنى حاجتك ؟

قال : كيف تقول لى هذا ولى عبدان أنت عبدهما ؟ !

قال : ومن هما ؟

قال : الحرص والهوى ، فإنى غلبتهما وغلباك ، وملكتهما وملكاك ! وقيل فى قوله تعالى :

« رب قد آتيتنى من الملك » .

إنه أراد به ملكه على نفسه حيث لم يطع شهوته[١] حين راودته امرأة العزيز •

وقال بعضهم مررت بعسقلان فوقع بصرى على امرأة جميلة فمال قلبى إليها ، فاستعنت بالله واتقيت ، ومررت فرأيت فى تلك الليلة يوسف عليه السلام فقلت : الحمد لله الذى عصمك من امرأة العزيز • فقال : الحمد لله الذى عصمك من العسقلانية •

ومن عرف أنه تعالى المتفرد بالملك أنف أن يذل المخلوق ، لأن المعرفة بحقيقة ملكه توجب التجرد له فى التقرب إليه وتوجيه القصد نحوه فقط •

قال بشر الحافى رحمه الله : رأيت أمير المؤمنين علياً رضى الله عنه فى المنام فقلت : عظنى يا أمير المؤمنين •

فقال : ما أحسن عطف الأغنياء على الفقراء طلباً لثواب الله تعالى، وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ثقة بالله جل جلاله • فقلت : زدنى يا أمير المؤمنين فقال :

قد كنت ميتاً فصرت حيا ... وعن قريب تصير ميتا
عز بدار الفناء بيت ... فابن بدار البقاء بيتا

قيل من أمارات التوحيد الثقة بالموعود ، وكثرة العيال على بساط التوكل • وقيل من آداب من يكون واثقاً بما عند الله ألا يتوقف فى الإنفاق والبذل لتحققه أن الخلق من الله سبحانه وتعالى معجل ، وجميل العقبى مؤجل • حكى أن حاتماً الأصم[٢] كان صائماً فلما أمسى قدم

---

(١) فى م (لم يطمع شهرته) ولا يستقيم بها السياق .

(٢) هو حاتم بن علون من أكابر مشايخ خراسان ، تلميذ شقيق البلخى واستاذ ابن خضروية سمى كذلك لأنه تصامم حين جاءت امرأة لتسأله عن مسألة فاتفق انه خرج منها فى تلك الحالة صوت فخجلت ، فقال حاتم : ارفعى صوتك فأرى من نفسه أن أصم فسرت المراة بذلك. ومن أقواله عافيتى فى يوم=

إليه عشاؤه ، فجاء سائل ، فدفعه[٣] إليه فحمل إليه فى ساعته طبق عليه ألوان الأطعمة والحلوى ، وجاء سائل آخر فدفعه إليه فحمل إليه فى الوقت صرة فيها دنانير ، فصاح : الغوث من خلف !!

وكان فى جيرانه رجل يسمى خلفاً ، فاجتمع الناس عليه ، وقالوا : لم تؤذى الشيخ ؟

فقال : إنى لم أعنه ، وإنما عجزت عن شكر الله تعالى على ما يعجل لنا من الخلف .

= الا اعصى الله فيه ، ومن دخل مذهبنا هذا فليجعل فى نفسه أربع خصال من الموت: موتاً ابيض وهو الجوع، وموتاً اسود وهو احتمال الأذى من الخلق، وموتاً أحمر وهو العمل الخالص من الشوب فى مخالفة الهوى ، وموتاً أخضر وهو طرح الرقاع بعضها على بعض (الرسالة) .

(٣) فى م (فرفعه) ولا يستقيم بها السياق .

فصـــــل

فى معنى اسمه « القدوس »

فعول من القدس ، وهو الطهارة ، والتقديس التطهير ، ومنه الأرض المقدسة أى المطهرة ، ومعناه فى صفة الله تعالى نفى النقائص ، والتنزيه من الآفات باستحقاق نعوت الجلال والكمال •

ومن آداب من عرف معنى هذا الإسم أن يطهر الله تعالى نفسه عن متابعة الشهوات ، وماله عن الشبهات ، ووقته عن دنس المخالفات ، وقلبه عن كدورات العلاقات ، وروحه عن المضاجعات والمساكنات ، وسره عن الملاحظات والالتفاتات ، فلا يتذلل لخلوق بالنفس التى بهـا عبده ، ولا يعظم مخلوقاً بالقلب الذى به شهده ، ولا يبالى بما فقده بعدما وجده ، ولا يرجع قبل الوصول إليه بما قصده •

فصــــل

فى معنى أسمه « السـلام »

قيل معناه ذو السلام ، والسـلام بمعنى السلامة كاللذاذ بمعنى اللذاذة ، والرضاع بمعنى الرضاعة . معنـاه يقوده[1] إلى تنزيهه عن الآفات ، وتقديسه عن صفات المخلوقات فيكون بمعنى القدوس ، وقيل معنى السلام أنه سلم المؤمنون من عذابه كما أن معنى المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، وقيل معناه أنه ذو السلام على أوليائه فإنه عز وجل قال :

« الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى » .

فعلى القول الأول هو من صفات فعله ، حكى أن بعضهم رأى رجلا يغتاب إنسانا فقال له : هل غزوت السنة الروم ؟ قال : لا ، قال : فهل غزوت الترك أو الهند ؟ قال : لا .

قال : فكيف سلم منك أعداؤك الكفار ولم يسلم منك أخوك المسلم ؟

سئل بعضهم عن الورع فقال ، هو أن تطالب نفسك بما يطالب به الرجل الشحيح شريكه من المناقشة على النقير والقطمير .

ومن آداب من عرف هذا الإسم أن يعود إلى مولاه بقلب سليم ، والقلب السليم هو الخالص من الغل والغش والحقد والحسد ، فلا يضمر لأحد من المسلمين إلا كل صفاء وخلوص ، وصدق ونصح ، فيحسن الظن بكافتهم ، ويسيء الظن بنفسه ، فيلاحظ أفعاله بعين الازدراء ، وأقواله بعين الافتراء ، ويعتقد أنه شر الخلق فيرى الكبير خيراً منه لأنه عرف الله تعالى وأطاعه قبله ، ويرى الصغير خيراً منه لأنه أقل منه معصية . وقال المشايخ : إذا ظهر لك من أخيك عيب فاطلب له سبعين باباً من العذر

---

(١) فى م (يعوده) .

فإن اتضح لك فبها ، وإلا فعد على نفسك باللوم وقل بئس الرجل أنت حيث لم تقبل سبعين عذراً من أخيك .

ومن أمارات من يكون سليم القلب للمسلمين ألا ينطوى قلبه على سوء لهم ، و (...)[٢] يدعو إليهم ، وأن يساء إليه فيحسن إليهم ، وأن يظلم فينصفهم من نفسه ولا ينتصف منهم .

وروى فى الخبر أنه صلى عليه وسلم قال : أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم ؟

قالوا : يا رسول الله ... ومن أبو ضمضم ؟

قال : رجل كان إذا خرج من منزله قال اللهم إنى تصدقت بعرضى على عبادى .

---

(٢) غير مقروءة فى النسختين وان كانت فى س أكثر وضوحاً وتميل الى ان تكون (وعليه ان تخفى) — وربما قبلها السياق .

فصــــل

فى معنى اسمه « المؤمن »

معناه المصدق ومعناه فى وصفه عز وجل تصديقه لنفسه وهو علمه تعالى بأن صادق ، أوتصديقه لعباده وهو علمه بأنهم صادقون ، أوتصديقه لوعده ، فيكون من صفات فعله على هذا الوجه •

ويكون المؤمن من الأمان بمعنى الإجارة لا بمعنى التصديق وهو اعطاء الأمان لمن استجار به واستعاذ فيكون من صفات فعله ، فالعبد يؤمن بالله ، والله تعالى يؤمنه •

واعلم أن المشابهة فى الأسماء لا تقتضى المشابهة فى الذوات ، قيل ينادى غداً فى القيامة مناد أن كل من سـمى بنبى من الأنبياء فليدخل الجنة ، فيبقى أقوام لم توافق أسماؤهم الأنبياء فيقول الله تعالى : أنا المؤمن وأنا سميتكم المؤمن فيدخلهم الجنة •

حكى عن أبى يزيد[1] قال : هممت أن أدعو الله تعالى أن يكفينى شهوات نفسى ، ثم قلت : إن رسول الله ﷺ لم يسأل ذلك فتركت هذا الدعاء فكفانى الله تعالى شهوات نفسى بركة اتبــاع السنة ، فصرت لا أميز بين امرأة تستقبلنى وبين جدار •

---

(١) هو ابو يزيد طيفور بن عيسى بن سروشان وسروشان كان مجوسيا واسلم ، وابو يزيد من أهل بسطام ، وهو من كبار مشايخ الطبقة الأولى • له اقوال فى الأحوال على جانب من الخطورة اذ تكسوها مسحة الشطح غالباً ، وله معراج روحى يعد من الشواهد النادرة على معارج الأولياء • ومن أقواله : هذا فرحى بك وأنا أخافك ، فكيف فرحى بك اذا أمنتك ؟ ... ياربى أفهمنى عنك فانى لا افهم عنك الا بك — وسئل بأى شىء وجدت هذه المعرفة ؟ فقال : ببطن جائع وبدن عار ، توفى سـنة ٢٦١ او سنة ٢٣٤ هـ (انظر كتاب « المعراج » نشر الدكتور على عبد القادر فهو مذيل بمعراج أبى يزيد) .

حكى عن أبى بكر الكتانى[٢] قال : منذ كذا سنة ما خطر ببالى ذكر الطعام حتى قدم إلى • وقال بعضهم كنت أخدم الكتانى فى المدينة ، وكان يصوم فكنت أقدم له كل ليلة ما يفطر عليه وأمضى ، فظهر عليه أثر الضعف والنحول ، فراقبته ليلة فجاء إنسان وسأله فأعطاه ما قدمته إليه لإفطاره ، فتبعت الرجل وسألته عن قصته معه فقال : له عدة ليال يعطينى كل ليلة هكذا ، فحملته إلى الشيخ طعاماً آخر وقلت له : هلا قلت لى إنك آثرت به حتى أحمل إليك طعاماً آخر فقال : كنت أنسى كل ليلة أنى لم آكل شيئاً •

(٢) الكتانى بغدادى الأصل صحب الجنيد والخراز والنورى وجاوره بمكة الى أن مات ٣٢٢ هـ . نظر مرة الى شيخ ابيض الراس واللحية يسأل الناس فقال : هذا رجل أضاع حق الله فى صغره فضيعه الله فى كبره . (رسالة القشيرى) .

فصـــل

فى معنى أسمه « المهيمن »

قيل هو الرقيب الحافظ ، وقيل الأمين ، وقيل الشهيد ،وقيل المؤمن أصله مؤيمن قلبت الهمزة هاء كما فى أرقت الماء وهرقته[١] فيكون بمعنى المؤمن على هذا .

ومن آداب من عرف معنى هذا الإسم أن يكون مستحيياً من اطلاعه عليه ورؤيته له ، وهو المراقبة عنـــد أهل التحقيق ، ومعناه علم القلب باطلاع الرب . حكى أن إبراهيم بن أدهم[٢] كان يصلى ليلة ، وحين جلس مد رجليه فهتف به هاتف : أهكذا تجالس الملوك ؟

وكان الحريرى[٣] لا يمد رجليه فى الخلوة ويقول : حفظ الأدب مع الله تعالى أحق .

---

(١) فى م (وصرفته) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) ابن ادهم من بلخ . كان من ابناء الملوك ثم طلق الامارة وزهد ، وكان شديد الورع كثير السياحة ، من أقواله : اطب مطعمك ولا حرج عليك الا تقوم الليل ولا تقوم النهـــار ، وكثيراً ما كان يدعو : اللهم انقلنى من ذل معصيتك الى عز طاعتك ، ويؤثر عنه أنه لقى الخضر عليه السلام فعلمه اسم الله الأعظم مات بالشام سنة ١٦١ هـ .

(٣) الجريرى من كبار أصحاب الجنيد مات سنة ٣١١ هـ من أقواله : من استولت عليه النفس صار أسيراً فى حكم الشهوات ، محصوراً فى سجن الهوى ، وحرم الله على قلبه الفوائد ، فلا يستلذ بكلام الحق ولا يستحليه وان كثر ترداده على لسانه .

فصــــل

فى معنى اسمه « العــزيز »

قيل هو الغالب لا يغلب ، والظافر الذى لا يقهر ، من عز يعز • بضم العين إذا غلب ، ومنه قوله تعالى :

« وعزنى فى الخطــاب » •

وقيل هو الذى لا مثيل له من عز يعز بكسر العين لمن ذا قل وجود مثله • فكيف إذا عدم ، ومنه عز الطعام فى البلد •

وقيل هو القادر القوى من عز يعز بفتح العين أى لا يوصل إليه ومنه قولهم حصن عزيز إذا تعذر الوصول إليه مع جوازه ، فكيف إذا استحال الوصول إليه إذ لاحد له •

وقيل هو « المعز » فعيل بمعنى مفعل كأليم ووجيع ، فعلى هذا القول يكون من صفات الذات ، وإنما يعرف الله تعالى عزيزاً من أعز أمره بالسمع والطاعة ، فأما من استهان بأمره فمن المحال أنه تحقق عزه ، ومن عرف عزه يمنع فيشــكر ، ويبتلى فيصــبر ، ويستلذ لحكمه الهوان ، ويستحلى[1] الحرمان لأن القلوب مجبولة على تحمل المشاق من الأكابر والأعزة ، والانقياد لأحكامها بالجوارح والقلوب •

قال رجل لبعض العارفين : كيف الطريق إليه ؟

فقال : لو عرفته عرفت الطريق إليه •

فقال : كيف من لا أعرفه ؟ فقال : وكيف من لا تعرفه ؟

وقيل لبعضهم : ما علامة أنك تعرفه ؟

فقال : ما أهم بمخالفته إلا نادى مناد من قلبى استح منى •

---

(١) هكذا فى س وبها يستقيم المعنى أما فى م فقد وردت (يستحيل) •

ومن آداب من عرف أنه العزيز أنه لا يعتقد لمخلوق اجلالا ، ولهذا قال النبى عليه السلام : « من تواضع لغنى لأجل غناه ذهب ثلثا دينه » . قال أبو على الدقاق[٢] : إنما قال ثلثا دينه لأن تواضع المرء يكون بثلاثة أشياء ، لسانه وبدنه وقلبه ، فإذا تواضع له بلسانه وبدنه ولم يعتقد له العظمة بقلبه ذهب ثلثا دينه ، فإن اعتقدها بقلبه أيضاً ذهب كل دينه ، ولهذا قيل إذا عظم الرب فى القلب صغر الخلق فى العين .

ومتى عرفت أنه المعز لم تطلب العز الا منه ، ولا يكون العز الا فى طاعته ، فإن قيل كيف الجمع .

قوله تعالى :

« من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً » .

وقوله تعالى :

« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

قلنا : لا تنافى بينهما ، فإن العز الذى للرسول وللمؤمنين هو لله تعالى ملكاً وخلقاً ، وعزة سبحانه وتعالى له وصفاً ، فإذاً العز كله لله .

---

(٢) الدقاق أستاذ القشيرى ورائده وصهره وقد تحدثنا عن شىء من ذلك فى تقديمنا لهذا الكتاب .

فصــــل

فى معنى « الجبــار »

قيل هو مأخوذ من قولهم نخلة جبارة إذا فاقت[1] الأيدى ، فمعناه فى حقه أنه لا تناله يد جائرة ، ولا ينازعه معارض ، فيكون من صفات ذاته ، لأنه اخبار وجوده[2] على وصف السؤدد والجلال .

وقيل الجبار المتكبر من حيث المعنى ، والجبروت التكبر ، والتكبر فى وصف الله عز وجل محمود ، وفى وصف الخلق مذموم وعلى هذا المعنى يكون من صفات ذاته أيضاً .

وقيل الجبار بمعنى المجبر ، وهو المكره يقال : جبرته على الأمر وأجبرته بمعنى واحد ، وان كان أجبرته فى معنى الإكراه أكثر وأشـــهر استعمالاً من جبرته ، فمعناه فى حقه أنه لا يوجد من خلقه إلا ما يريده شاءوا أو أبوا فيكون من صفات الفعل ، وقيل الجبار بمعنى المصلح من قولهم جبرت الكسر إذا أصلحته ، ومنه قول الشاعر :

قد جبــــر الدين الإله فانجبـــر

وعلى هذا يكون من صفات الفعل أيضاً ، والإسم إذا احتمل معانى مما يصح فى وصفه سبحانه فمن دعاه بذلك الإسم فقد أثنى عليه بجميع تلك المعانى .

فمن آداب من عرف أنه لا تناله الأيدى لعلو قدره أن يتحقق أنه

---

(١) هكذا فى س وبها يستقيم المعنى أما فى م فقد وردت (فانت) .

(٢) هكذا فى م وهى أقرب الى المعنى من (جوده) التى وردت فى س .

لا سبيل إليه ، ولابد من أمره[٣] ، ولا نصيب للعبد منه إلا لطفه وإحسانه ، اليوم عرفانه ، وغداً غفرانه .

ومن آداب من عرف أنه مصلح الأمور أن يتوخى أموره إليه ، ويتوكل فى جميع أحواله عليه ، ان أصابه خير علم أنه مسديه ومتحفه ، وان أصابه ضر علم أنه يزيله ويكشفه فلا يخاف من اختلال أحواله ، وقلة ماله مع كثرة عياله ، وضعف احتياله ، ثقة بلطفه وأفضاله .

---

(٣) فى م (ولابد منه) .

فصـــل

فى معنى « المتـــكبر »

التكبر و الكبرياء اخبار عن استحقاقه لنعوت الجلال وصفات الجمال، والتكبر فى صفة الخلق مذموم لأنهم محل النقص ، فمن تكبر منهم فقد تكلف أن يتصف بغير ما يليق به ، فمن عرف علوه سبحانه وكبرياءه لزم طريق التواضع ، وسلك التذلل ، ولهذا قيل : هتك سره من جاوز قدره ، وقد قيل : الفقير فى خلقته[1] أحسن منه فى جديد غيره •

ولا وصف أزين للخـــدم من التواضع بحضرة الســـادة ، سئل يحيى بن معاذ رضى الله عنه عن المحبة فقـــال : هى ما لا يزيد بالبر أو ينقص بالجفا •

(١) الثوب الخلق : القديم البالى .

فصـــــل

فى معنى « الخــالق »

الصحيح أن الخالق هو المخترع للأعيان ، المبدع لها •

وقيل الخلق هو التقدير ، وقيل هو التصوير ،ومنه قوله تعالى :

« وإذ تخلق من الطين كهيئــة الطــير » •

ومن آداب من عرف أنه الخالق ان ينعم النظر فى اتقان خلقــه فتلوح[1] بقلبه دلائل حكمته سبحانه فى صنعه ، فيعلم أنه خلقه من نطفة بشراً ، ركب أعضاءه ، ورتب أجزاءه ، على أحسن تركيب وأفضل ترتيب فتبارك الله أحسن الخالقين •

حكى عن بعضهم : قال كنت مع الشبلى رحمه الله ففتح له بمنديل حسن ، فمر بكلب ميت فقال لى : كفن هذا الكلب فى هذا المنديل ، فادفنه• فحملت الكلب فيه،وطرحته فى موضع ، ثم غسلت المنديل ، وعدت إليه ، فقال لى : أفعلت ما أمرتك به ؟

فقلت : لا •

فلم يقل لى شيئاً ، فقلت له : ما سبب ذلك الذى أمرتنى به ؟

فقال : لما مررت به استقذرته واستقبحته ، فنوديت فى سرى : أليس نحن خلقناه ؟ ! فأمرتك بذلك كفارة لما خطر لى •

وفى خبر مسند أن النبى ﷺ قال : رحم الله أخى نوحاً كان اسمه يشكر ، ولكنه لكثرة بكائه على خطيئة أوحى الله تعالى : يا نوح كم تنوح ،

---

(١) فى م (ليلوح) •

فسمى نوحاً ، فقيل يا رسول الله : وما كانت خطيئته ؟ فقال : انه مر بكلب فقال فىنفسه:ماأقبحه ! فأوحى الله تعالى إليه : اخلق أنت أحسن منه !

ومن آداب من عرف أنه سبحانه هو المتفرد بالخلق والإيجاد ألا يمجد كسب العبد ، وألا يطوى بساط الشرع (فى الابتلاء بالأمر والنهى)[٢] ، ولا يعتقد أن للعبد على الله حجة بسبب ذلك .

(٢) هكذا فى النسختين وفيها شىء من غموض .

فصـــل

فى معنى « البـــارىء »

هو الخالق يقال برأ الله الخلق أى خلقهم ، ومنه البرية وهى الخلق الا أن العرب تركت همزتها • وقيل ان البرية مشتق من البرى وهو التراب فأصلها غير الهمز ، وكل ما ذكر فى الخالق يأتى مثله فى البادى •

فصـــل

فى معنى « المصـــور »

التصوير جعل الشىء على صورة ، فالله تعالى برأ[1] العبد وصوره ولم يكن شيئاً مذكوراً ، فالواجب عليه ألا يعجب بحاله ، وألا يـدل بأفعاله ، وكيف يتبجح بصفاء حاله وقد أشكل عليه حكم حاله ؟ وكيف لا يتواضع من يعلم أنه فى الإبتداء نطفة ، وفى الإنتهاء جيفة ، وفى الحال صريع جوعه ، وأسير شبعه ، كنيف فى قميص !! إن أمسك عن الكلام ساعة تغيرت رائحة فمه ، وان عرق فاح صنان إبطه وأصابعه ، فإذا شاهد نقص نفسه عرف جلال ربه .

قال تعالى :

« **وفى أنفسكم أفلا تبصرون** » .

وقال تعالى :

« **بل الإنسان على نفسه بصيرة** » .

وقيل فى قوله تعالى :

« **وفى أنفسكم أفلا تبصرون** » .

معناه أن يفكر الإنسان كيف زين الله تعالى العضو الذى لا يزال ظاهراً منه وحسـنه وهو الوجه ، وسـتر عليه المساوىء فى الحال[2] فهو[3] حقيق بألا يفضحك على رءوس الأشاهد يوم التناد .

---

(١) فى م (برى) والأصح أن تكون (برا) اى (برا) والهمزة محذوفة للتخفيف .

(٢) فى الحال يقصد بها القشيرى هنا — فى هذه الحياة الدنيا .

(٣) ما بين القوسين زيادة أضفناها ليستقيم الأسلوب .

وقال بعضهم فى قوله تعالى :

« وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون » •

نبههم على حسن الخلق بما دلتهم عليه من صفة الأرض ؟ فإنه يلقى عليها كل قبيح ، ويخرج منها كل مليح من الزهر وأنواع النبات ، فهكذا المؤمن ينبغى أن يشرب الغيظ ولا يرشح ، ويحتمل الأذى ولا ينتقم[٤] حكى أن بعضهم كان يسىء القول فى رجل وهو يسمع ويسكت ، فضاق صدره فقال له : إياك أعنى فقال : وعنك أحلم •

قال الله تعالى :

« وصوركم فأحسن صوركم » •

ولم يقل لشىء من المخلوقات أحسن صورته الا للإنسان تخصيصاً له وتكريما •

وقال تعالى :

« لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » •

وهذا أيضاً مما لم يقسم به وغيره • وقد ورد فى بعض الآثار أن الله تعالى خلق لجبرائيل عليه السلام ستمائة جناح كلها مرصعة باليواقيت والدرر وجلاجل الذهب المحشوة بالمسك ، لكل جلجل صوت لا يشبه صوت الأخرى ، وأن اسرافيل عليه السلام إذا أخذ فى التسبيح عطل على كل الملائكة تسبيحهم لحسن صوته ، وطيب نغمته ، وأن نور العرش لو بدا لصار نور الشمس بالإضافة إليه كنور السراج بالإضافة إلى نور الشمس •• ثم انه تعالى لم يصف شيئاً من هذه المخلوقات بما وصف به الإنسان من الوصفين المذكورين •

---

(٤) القشيرى هنا ينتفع بما يعلم من تعريفات المشايخ للتصوف والصوفى ، فينقلها الى معرض مماثل انظر الرسالة ص ١٣١ حيث تجد تعريف الجنيد للصوفى (انه كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها الا كل مليح).

ثم دع هذا الذى هو عائد إلى الخلقه وانظر إلى قوله تعالى :

« **يحبهم ويحبــونه** » .

هل وصف بذلك أحداً من المخلوقات غير بنى آدم ؟ واعلم أن حسن التصوير وإن كان فى ظاهر الخلق فإن حقيقته فى باب الخلق أتم وأكمل ، فإن الله تعالى حسن خلق الأكثرين وقل من لم يحسن خلقه ، وإنما يمتاز العوام عن البهائم بسوية[٥] الخلق ، ويمتاز الخواص عن العوام بسوية الخلق ، ولم يمن الله تعالى على رسوله بشىء من النعمة كما من عليه بحسن خلقه حيث قال :

« **وانك لعلى خلق عظيم** » .

ثم اعلم أن تباين الأخلاق كتباين الصور فكما لا تتشابه الصورتان الا نادراً فكذلك الأخلاق ، حكى أن بعض الأمراء سأل ندماءه عن[٦] شر الأشياء فقال بعضهم : المرأة السوء ، وقال بعضهم الخلق السوء ، وقال بعضهم الجار السوء ، فتواضعوا على التحاكم إلى أول من يلقونه إذا خرجوا من البلد للسير ، فلما خرجوا استقبلهم من أهل السواد رجل معه حمار عليه جرار خزف ، فتحاكموا إليه فقــال : شر الثلاثة الخلق السوء لأن المرأة السوء يمكن التخلص منها بالطلاق ، والجار السوء يمكن منه بالنقلة والمفارقة ، (أما) الخلق السوء (فهو) معك أينما كنت ، فاستحسن الأمير قولة .

---

(٥) فى م (بتسوية الخلق) .
(٦) فى م (على) .

فصـــل

فى معنى « الغفـــار »

من أسمائه عز وجل الغافر والغفور والغفـــار ، والغفور والغفار للمبالغة ، والغفار أبلغ ، وأصل الغفر الستر والتغطية ومنه قيل لجنة الرأس المغفر لأنها تستر الرأس ، وغفر الثوب (..)[1] ، فالمغفرة من الله تعالى ستر للذنوب ، وعفوه عنها بفضـــله ورحمته لا بتوبة العباد وطاعتهم ، وفى بعض الأخبار : عبدى لو أتيتنى بتراب الأرض ذنوباً أتيتك بتراب الأرض مغفرة ما لم تشرك بى شيئا .

وفى خبر مسند : أن رجلا يؤمر به إلى النار فإذا بلغ ثلث الطريق التفت ، ثم إذا بلغ نصـــف الطريق التفت ، ثم إذا بلغ ثلثى الطريق التفت ، فيقول الله تعالى : ردوه ثم يسأله :

لم التفت ثلاث مرات ؟

فيقول : لما بلغت ثلث الطريق ذكرت قولك « وربك الغفور ذو الرحمة » فالتفت رجـــاء المغفرة والرحمة ، فلما بلغت نصـــف الطريق ذكرت قولك :

« ومن يغفر الذنوب الا الله » ، فتقوى رجائى فالتفت ، فلما بلغت ثلثى الطريق ذكرت قولك : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » فازددت رجاء . طمعاً فى مغفرتك ورحمتك ! فيقول الله تعالى : اذهب فقد غفرت لك .

وقوله تعالى :

« ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيمـــا » .

---

(١) غير مقروءة فى النسختين .

فيه اشارة إلى قبول توبة المشايخ الذين استغرقوا عمرهم وشبابهم فى الزلات والخطيئات ، ثم تابوا قبل الممات فى آخر عمرهم لأن كلمة ثم للتراخى ، وفيه لطيفة(٢) أخرى وهى أنك عصيته فعلا ثم أطعته قولا فرضى بذلك ، ولطيفة أخرى وهى أنك طلبت المغفرة فوجدت ، الله جل جلاله ، قال عز من قائل :

« ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً » .

وليس العجب من السارة إذ(٣) طلبوا ماء فوجدوا يوسف ، إنما العجب من عاص طلب المغفرة فوجد الله تعالى .

وقيل إن رجلا كان يقول إلهى أبطأت ! إلهى أبطأت ! فهتف به هاتف لم تبطىء إنما أبطأ من مات ولم يتب .

وجاء فى بعض الأخبار أن رجلا فى الزمن الأول قتل تسعة وتسعين رجلا بغير حق ، وجاء إلى بعض العلماء فقال ما تقول فيمن قتل تسعة وتسعين رجلا بغير حق ؟

فقال العالم : إنه فى النار .

فغضب وقتل العالم ، ثم إنه بعد مدة ندم فجاء إلى عالم آخر ، وقال له :

ما تقول فيمن قتل مائة رجل بغير حق ثم تاب ، فهل يقبل الله تعالى توبته ؟ فقال :نعم. فقال : أنا ذلك الرجل .. فما تأمرنى به ؟

فقال العالم : بسبيلك أن تمضى إلى البلد الفلانية فإن الله تعالى

---

(٢) يقصد بها المعنى الخفى المستنبط من ظاهر النص ، وللتشيرى تفسير كامل فى هذا الاتجاه اسمه « لطائف الاشارات » .

(٣) هكذا فى س ووجدناها أكثر ملاءمة من (اذا) فى م .

بقبل توبتك هناك ، ومضى الرجل فمات فى الطريق ، فتخاصم ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فى قبض روحه ، فبعث الله ملكاً وقال : إمسح الأرض التى قطعها إلى الموضع الذى بلغه ، والتى بقيت ، وانظر إلى البلدين أيهما أقرب ، فنظر الملك فوجده إلى أرض التوبة أقرب بشبر ، فأمر الله عز وجل به إلى الجنة(٤) .

---

(٤) ليس بمستبعد ان تكون مثل هذه القصص من وضع القشيرى ، اراد بها صياغة نوع من الرمز يحقق هدفاً تعليمياً .

(انظر كتابنا النزعة الأدبية عند الامام القشيرى) .

فصـــل

فى معنى « القهـار »

من أسمائه سبحانه وتعالى القاهر والقهار وكلاهما فى القرآن . والقهار من صفات الذات وهو مبالغة من القاهر ، وقيل هو من صفات الفعل معناه القاهر الذى يحصل مراده من خلقه شاءوا أو أبوا ، رضوا أم كرهوا . واعلم أن الله سبحانه وتعالى قهر نفوس العابدين بخوف عقوبته ، وقلوب العارفين بسطوة قربته ، وأرواح المحبين بكشف حقيقته ، فالعابد بلا نفس لاستيلاء سلطان أفعاله عليه ، والعارف بلا قلب لاستيلاء سلطان اقباله عليه ، والمحب بلا روح لاستيلاء كشف جماله وجلاله عليه .

واعلم أنه سبحانه وتعالى قهر جميع عباده بالموت فلم ينج منه ملك مقرب ، ولا نبى مرسل ، طاحت عنده صولة المخلوقين ، وقوى الخلائق أجمعين ، ويقال ان الله تعالى يذيق ملك الموت طعم الموت فيقول عند نزع روحه : وعزتك لو علمت أن طعم الموت يكون مثل هذا لما قبضت روح أحد ، ولهذا المعنى من القهر يقول إذا قبض أرواح الخلائق أجمعين : « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » .

فصـــل

فى معنى « الوهـــاب »

من أسمائه عز وجل الواهب والوهاب ، والواهب المعطى والوهاب مبالغة منه ، وهى من صفات الفعل ، فالله تعالى كثير اللطف والإقبال ، عظيم المن والنـــوال ، يعطى قبل السؤال ، ويســـبغ خصائص الجود والأفضال • وقيل ان موسى عليه السلام قال : يارب إنى أرى فى التوراة أمة قناديلهم فى صدورهم من هم فقال : هم أمة محمد ، ولم يزل موسى عليه السلام يعد صفاتهم الجميلة المذكورة فى التوراة ، والله تعالى يقول : هم أمة محمد ، حتى اشتاق موسى عليه السلام إلى لقائهم ، فقال له : إنك لا تراهم ولكن إن شئت أسمعتك أصواتهم ، ثم نادى الله تعـــالى أمة محمد وهم فى أصلاب آبائهم ، فقالوا : لبيك ربنا فقال : يا أمة محمد ، أعطيتكم قبل أن تسألونى ، وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى •

حكى أن الشبلى رحمه الله ســـأل بعض أصحاب أبى على الثقفى فقال :

أى اسم من أسمائه سبحانه وتعـــالى يجرى على لسان أبى على أكثر ؟

فقال : اسم الوهاب •

فقال الشبلى : لذلك كثر ماله •

وحكى عن بعضهم أنه قال : رأيت شيخاً أعرابياً عرياناً فى الطواف وهو يقول :

أما تستحى يا خالق الخلق كلهم   أناجيك عريـــانا وأنت كـــريم

وترزق أبنـــاء الخنـــازير كلهم   وتتركنى شـــيخاً أبـــوه تميـــم

فقلت له : ألا تعلم أن الله تعالى لا يخاطب بمثل هذا ؟

فقال : إليك عنى ، فإنى أعلم به منك ، ومضى ، ثم جاء بعد ساعة وعليه جبة خز ، وهو يتبختر فيها ، فلما رآنى قال :

ألم أقل لك أنا أعلم به منك ؟ عاتبته فأعطانى جبة خز .

ومن آداب من عرف أنه الوهـــاب ألا يرفع حوائجه إلا إليـــه ، ولا يتوكل فى جميع أموره إلا عليه .

فصـــــل

فى معنى « الرزاق »

مبالغة من الرازق وهو معطى الرزق ، والرزق كل ما يمكن أن ينتفع به فى ذاته ، وقيل ماكان معداً للانتفاع به مهيأ له .

قيل لبعضهم : من أين تأكل يا فلان ؟

فقال : منذ عرفت خالقى ما شككت فى رازقى .

وقال رجل لحاتم الأصم : من أين تأكل ؟

فقال : يكفى علمك الخبز من السماء .

وقيل لبعضهم من أين تأكل ؟

فقال : من خزانة ملك لا يدخلها اللصوص ، ولا يأكلها السوس . واعلم أن الله سبحانه وتعالى خص الأغنيـــاء بوجود الأرزاق ، وخص الفقراء بشهود الرزاق ، فمن سعد بشهود الرزاق لم يضره ما فاته من وجود الأرزاق ، ومن عرف أنه الرزاق أرجع إليه جليل الرزق ودقيقة لأنه يعلم أنه لا شريك له فى رزقه كما لا شريك له فى خلقه . وحكى أن موسى عليه السلام قال يوماً فى مناجاته : إلهى ... إنى لتعرض لى الحاجة الصغيرة أحياناً فأسألها منك أم أطلبها من غيرك ؟

فقال له : لا تسأل غيرى واسألنى حتى ملح عجينك ، وعلف شاتك . فلما قال له ذلك طلب منه الكثير والقليل ، فقال : رب أرنى أنظر إليك » ، وقال مرة أخرى : « رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير » .

حكى أن الشبلى رحمه الله كتب إلى بعض الأغنياء أن ابعث لنا من دنياك ، فقال : اسأل الدنيا من مولاك ، فقال الشبلى : الدنيا حقيرة وأنت حقير ، وإنما أطلب الحقير من الحقير ، ولا أطلب من مولاى غير مولاى .

واعلم أنه يرزق الأرواح والسرائر كما يرزق الأشباح والظواهر ، ورزقها المعارف والكشوفات ، يوسعها على قوم ، ويضيقهما على قوم آخرين كما يشاء ويختار ، من غير علة كما فى أرزاق الأبدان .

فصـــل

فى معنى « الفتــاح »

الفاتح والفتاح من أسمائه ، وكلاهما فى القرآن والفتاح مبالغة منه، والفتاح هو القاضى والحاكم فى لغة العرب لأنه يفتح بقضائه ما انغلق من الخصومة ، والله تعالى فتاح لأنه يفتح على عباده ما انغلق عليهم من أبواب الرزق وغيره مما قصرت حيلهم عن فتحه ، ومنه قوله تعالى :

« فتحنا عليهم كل شىء » •

فمن علم أنه الفتاح للأبواب وللأسباب لم يعلق فكره بغيره ولم يشتغل قلبه بسواه ، فيعيش معه بحسن الانتظار كلما ازداد بلاء ازداد بربه ثقة ورجاء كيعقوب عليه السلام قال لبنيه بعد ما طال الأمر[1] ، وتمادت الغيبة ، ورجعوا إليه خائبين غير مرة : « يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » •

وحكى عن بعض الفقراء أنه كان يأتى كل يوم ويقف بحذاء الكعبة بعدما يطوف كثيراً ثم يخرج من جيبه رقعة ينظر فيها ،فلما كان فى بعض الأيام ذلك ثم تباعد ومات فجاء بعض من كان يرمقه ، فأخرج الورقة وقرأ ما فيها فإذا فيها : « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا » ، وكان الرجل قد أصابته فاقة فصبر ، ولم يظهر حاله لمخلوق حتى مات •

ومن آداب من علم أنه الفتاح أن يكون حسن الانتظار لوجود لطفه، دائم الترقب لحصول فضـــله ، مستديم التطلع لنيـــل كرمه ، تاركاً للاستعجال ، ساكناً تحت جريان الحكم علماً منه أنه لا يقدم ما حـــكم بتأخيره ولا يؤخر ما حكم بتقديمه • وحكى أن رجلا كان يؤذن لعلى

---

(١) هكذا فى م وهى فى س (الأمد) والمعنى يتقبلهما ، اما أمر غيبة يوسف أو أمدها .

رضى الله عنه فى مســجده ، وكانت تخرج من دار على رضى الله عنه جارية تستسقى الماء بكرة ، وكان المؤذن يقول لها كل يوم : إنى أحبك • فشكت يوماً إلى على رضى الله عنه قائلة :

إن هذا المؤذن يقول لى كل يوم إنى أحبك ، فقال على : قولى له : وأنا أيضاً أحبك •• فما بعد هذا ؟

فقالت الجارية له ذلك ، فقال : بعد هذا نصبر حتى يحكم الله بيننا • فذكرت ذلك إلى على ، فدعاه ، وسأله عن القصة فأخبره بالصدق ، فقال له على : احملها إلى بيتك جارية لك فقد حكم الله بينكما •

فصـــل

فى معنى « العليم »

العالم والعليم والعلام من أسمائه سبحانه وتعالى ، والتوقيف فى أسمائه معتبر ، فلا يسمى الا بما ورد به الكتاب أو السنة وانعقد عليه اجماع الأمة ، ولهذا لا يسمى عارفاً ، ولا فطناً ، ولا عاقلا .

ومن آداب من تحقق أنه عالم أن يكون مكتفياً بعلمه عند جريان حكمه ، ساكناً عن تدبير نفسه بتقديره ، ولهذا لما تعرض جبرائيل للخليل عليه[1] السلام وهو فى الهواء بعد خروجه من كفة المنجنيق ، وقال له :

هل لك من حاجة ؟ . فقال : أما إليك فلا .

فقال له : فاسأل الله تعالى .

فقال : حسبى من سؤالى علمه بحالى .

وحكى أن رجلا قال لبعض العارفين : أيطلب العبد رزقه ؟

فقال : إن علم أين هو فليطلبه .

فقال : أيسأل الله تعالى رزقه ؟

فقال : إن علم أنه نسبه فليذكره .

ومن آداب من علم أنه سبحانه وتعـالى عالم بـكل شىء حتى بخطوات[2] الضمائر ، ووسواس الخاطر أن يستحيى منه ، ويكف عن معاصيه ، ولا يفتر بجميل ستره ، ويخشى بغتات[3] قهره ، ومفاجآت مكره .

---

(١) فى م (عليهما) .

(٢) فى م (بخطوات) والأصح (بخطرات) كما فى س خصوصاً اذا رأينا القشيرى فى رسالته يعرف الخطرات بأنها خطاب يرد على الضـمائر ، فالصلة بينهما متوثقة حسب الاصطلاح (الرسالة ص ٤٦) .

(٣) فى م (بعقاب) وهى لا توافق المعنى .

قال تعالى :

« يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم » .

وفى بعض الكتب السماوية :

« إن لم تعلموا أنى أراكم فالخلل فى إيمانكم ، وإن علمتم أنى أراكم فلا تجعلونى أهون الناظرين إليكم » .

ومن آدابه أيضاً ألا يتعرض لمخلوق فيما يحتاج إليه من مطالبته اكتفاء بعلمه ، فإن من(٤) سكن قلبه إلى مخلوق عوقب فى الحال ، إن كان له عند الله قدر .وحكى عن بعضهم أنه قال : كنت جائعاً فقلت لبعض معارفى : إنى جائع فلم يطعمنى شيئاً ، فمضيت فوجدت درهما ملقى فى الطريق فرفعته فإذا عليه مكتوب : « أما كان الله جل جلاله عالما بجوعك حتى طلبت من غيره ؟! » .

وحكى عن أبى سعيد الخراز أنه قال : خرجت من البادية وكنت جائعاً ، فدخلت الكوفة ، وكان لى بها صديق يقال له الجرارى ، وكان يضيفنى إذا دخلت الكوفة ، فأتيت حانوته ، فوجدته غائبـاً ، فدخلت مسجداً بقرب حانوته أنتظر رجوعه ، وقلت : بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين وسلام علينا وعلى عباد الله المتوكلين ، وقعدت أنتظره ، فدخل داخل وقال :

الحمد لله رب العالمين ، سبحان من أخلى الأرض من المتوكلين ، وسلام علينا وعلى جميع الكذابين ... يا أبا سـعيد مدعياً التوكل .. التوكل فى الصحارى والبرارى وليس فى الجلوس على البوارى وانتظار الجرارى .

قال : فالتفت .. فلم أر أحداً .

---

(٤) فى م (فان ما سكن ..) .

وهكذا سنة الله جل جلاله مع خواص عبـــاده ، لا يساهلهم فى خطرة ، ولا يتجاوز عنهم فى لحظـــة ، بل يطالبهم بالكبير والصغير ، ويحاسبهم[٥] فى النقير والقطمير ، وأما الذين رتبتهم خسيسة ، وقيمتهم قليلة ، فيذرهم بإمهاله يغترون ، وفى غفلاتهم ينهمكون ، حتى يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون نعوذ بالله من مكر الله ٠

---

(٥) فى م (ويضايقهم) ٠

فصـــــل

فى معنى « القابض الباســط »

من أسماء الله تعالى نطق بهما الكتاب والسنة ، وهما من صفات فعله ، معناه قابض الأرواح عن الأشباح عند الموت ، وباسط الأرواح فى الأشباح عند الحياة .

وقيل معناه قابض الصدقات من الأغنياء أى قابلها ، وباسط الأرزاق للفقراء أى معطيها واهبها .

وقيل معناه قابض القلوب أى مضيقها وموحشها بالجهل والغفلة ، وباسط القلوب أى موسعها بالعلم والمعرفة .

واعلم أن القبض والبسط فى اصطلاح أهل المعرفة عبارة عن غلبة الخوف والرجاء على القلب ، فمن غلب على قلبه الخوف كان من أهل القبض ، ومن غلب على قلبه الرجاء كان من أهل البسط ، فإذا كاشف الحق[1] عبداً بنعت جلاله قبضه ، وإذا كاشفه بنعت جماله بسطه .

واعلم أن الله تعـــالى يرد العبد إلى أحوال بشريته فيقبضه حتى لا يطيق حمل ذرة ، ويأخذه مرة عن صفاته فيحمـــل كل ما يرد عليه بقوة وطاقة ، وحكى عن بعضهم قال : كنت مع الخواص[2] فى سفر فنزلنا تحت شجرة فجاء أسد وربض بقربنا ، ففزعت فزعاً شديداً ، وصعدت إلى الشجرة ، وقعدت على غصن إلى الصباح من خوف الأسد ، ونام الخواص

---

(١) هكذا فى س ، أما فى م فهى (الحياة) وبها لا يستقيم المعنى .

(٢) الخواص هو ابراهيم بن أحمد اسماعيل ، أحد من سلك طريق التوكل ، وكان أوحد المشايخ فى وقته ، ومن أقران الجنيد والنورى ، وله فى السياحات والرياضات مقامات يطول شرحها توفى سنة ٢٩١ هـ من أقواله : من لم تبك الدنيا عليه لم تضحك الآخرة له — ليكن لك قلب ساكن ، وكف فارغة ، وتذهب النفس حيث شاءت — على قدر اعزاز المؤمن لأمر الله يلبسه الله من عزه ويقيم له العز فى قلوب المؤمنين (طبقات السلمى) .

تحت الشجرة ولم يحتفل بالأسد ، فلما كانت الليلة الثانية نزلنا فى مسجد فنام الخواص ، فوقعت على وجهه بقة فضج • فقلت له : هذا عجب !! البارحة ما جزعت من الأسد والليلة جزعت من بقة ؟ !

فقال : البارحة كنت مأخوذاً عنى ، والليلة أنا مردود إلى •• فلهذا جزعت •

وحكى عن الشافعى رضى الله عنه قال : من عرف الله تعالى حمل السموات والأرضين على شعرة من جفن عينه ، ومن لم يعرف الله جل جلاله لو تعلق به جناح بعوضة لضج • فحمل هذا منه على حالتى القبض والبسط •

وقال بعضهم : إن الله تعالى إذا قبض قبض حتى لا طاقة ، وإذا بسط بسط حتى لا فاقة •

وكان الشيخ أبو على الدقاق يقول : القبض حق الله من العبد ، والبسط حظ العبد من الله تعالى ، ولأن يكون العبد لحق الله منه أتم من يكون قائماً بحظه من الله تعالى ، وينبغى للعبد أن يتجنب الضجر فى وقت قبضه ، ويتجنب ترك الأدب فى وقت بسطه ، فإن كل واحد من الأمرين خطر عظيم •

فصـــــل

فى معنى « الخافض الرافــع »

اسمان من أسمائه سبحانه وتعالى ورد بهما الخبر ، وهما من صفات فعله ، يرفع من يشاء بإنعامه ، ويخفض من يشاء بانتقامه . قيل : من رضى بدون قدره رفعه الله فوق غايته .

حكى أن رجلا رأى إنسانا واقفاً فى الهواء فقال له : كيف بلغت هذه المنزلة ؟

فقال : جعلت هوى نفسى تحت قدمى ، فسخر لى الهواء .

واعلم أن الرفع والخفض فى الأمور الدنياوية مجـاز وفى الأمور الدينية ــ كالأخلاق والصفات الباطنة ــ حقيقة[١] . فمن زكى نفسه ، وطهر خلائه ، فهو المرفوع حقيقة ، ومن دس نفسه فى دنس خلائه ، وأسرته شهواته وهواه المخذول المخفوض[٢] حقيقة .

حكى أن امرأة (كانت) تكنس المساجد ، وكانت تسمى مسكينة ، فرؤيت فى المنام فقيل لها : ما حالك يا مسكينة ؟

فقالت : هيهات .. ذهبت المسكينة !

واعلم أن من تذلل لله فى الدنيا رفعه الله فى الآخرة .

قال الله تعالى :

« وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً » .

---

(١) الرفع والخفض والمجاز والحقيقة ــ هذه الألفاظ تذكرنا بمصطلحات النحو والبلاغة ، وينبغى أن نتذكر أن القشيرى حاول فى أحد كتبه « نحو القلوب » أن يستخدم القواعد المألوفة فى النحو على التصوف أو أن يستخدم التصوف فى علم النحو ، وهى محاولة شيقة (انظر كتابنا : الامام القشيرى وتصوفه) .

(٢) فى م (المحفوظ) .

جاء فى التفسير أن معنى ملكاً كبيراً أن الله تعالى يرسل ملكاً إلى وليه بكتاب ، ويقول له : إستأذن على عبدى فإن أذن لك فادخل ، وإلا فارجع • فيستأذن عليه من سبعين حاجباً ، فيأذن له ، فيدخل عليه وبعطيه كتاب الله تعالى وعلى عنوانه مكتوب : من الحى الذى لا يموت إلى الحى الذى يموت ، فيفتحه فيجد فيه مكتوباً : يا عبدى •• إشتقت إليك فزرنى ، فيقول : هل جئت بالبراق ؟

فيقول الملك : نعم •• فيركبه ولى الله ، فيغلب الشوق على قلبه ، فيحمله شوقه ويطير به حتى يوصله إلى بساط اللقاء ، ويبقى البراق فى الطريق •

وأما الذى يخفض[٣] به فهو فى الآخرة أذل من التراب ، تطؤه الأقـــدام •

قال الله تعالى :

« **فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا** » •

---

(٣) فى م (يحفظ) •

فصـــل

فى معنى « المعـز المـذل »

من صفات فعله سبحانه وتعالى وذلك يكون فى الدنيا والآخرة ، كما مر فى الخافض والرافع ، فعز الدنيا بالمال والحال ، فالمال لتزيين الظاهر ، والحال لتزيين الباطن ، فيعز الزاهد بعزوف[١] نفسه عن الدنيا ، وبعز العابد بسلامة نفسه عن اتباع الهوى ، وعن الرغائب والمنى[٢] ، وبعز المريد بزهده فى صحبة الورى ، وانقطاعه إلى باب المولى ، ويعز العارف بتأهيله لمقامات النجوى ويعز المحب بالكشف والبقاء والفنا[٣] عن كل ما هو غير وســوى ، ويعز الموحد بشهود جلال من له البهــاء والبقا[٤] .

واعلم أن أصل إعزاز الحق لعباده يكون بالقناعة ، فإن كل الذل فى الطمع ، ألا ترى أن البازى أو[٥] العقــاب يطير فى فضاء عزه حتى ينتهى إلى محل لا يرتقى إليه طرف ، ولا تسمو إليه همة ، فيرى قطعة لحم على شبكة فينزله الطمع إليها ، فيعلق بالشبكة ، فيصيده صبى ثم يلعب به ، أو يسخر به عبد . فلولا الأطماع الكاذبة لما استبعد الأحرار كل شىء لا خطر له ،ولهذا قيل :

وخير رداء يرتديه ابن حــرة   سلامة عرض لم يدنس بمطمع

قيل أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : حذر أصحابك أكل الشهوات فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا محجوبة عنى ، وحكى عن

---

(١) مشتبهة فى م ، وربما كان من الخير أن تعدل الدنيا الى الدنى حتى تتفق الفاصلة .

(٢) وردت (المن) فى م وهى خطأ فى النسخ .

(٣) وردت فى م (واللقاء والغنا) وهى خطأ فى النسخ .

(٤) وردت فى م (واللقاء) وهى خطأ فى النسخ .

(٥) آثرنا او بدلا من (الواو) الموجودة فى م ، س لأن الفعل جاء مفرداً بعدهما .

بعض المشايخ أنه دخل على تلميذ له ، فقدم إليه خبزاً قفاراً ، ولم يكن عنده إدام ، فتمنى بقلبه لو كان عنده إدام لقدمه إلى الشيخ ، فقام الشيخ وقال له : تعال معى •• وذهب به إلى باب السجن فرأى الناس ، واحد يضرب ، وآخر يصلب ، وآخر تقطع يده ، وآخر يعصر ، وقال له :

هؤلاء الذين لم يصبروا على خبز القفار •

وحكى أن شيخاً حضر باب أمير فرأى النـــاس محجوبين عنه إلا خادماً له فإنه كان يدخل بلا حجاب ، فسأل عنه فقيل له : إنه يدخل على الأمير وعلى حرمه أيضاً ، متى شاء بغير حجاب ، فقال له :

ولم ذلك ؟

فقال : لأنه مفقود آلة الشهوة •

فقال الشيخ : سبحان من وعظنى بعد سبعين سنة ، يحضنى (أن) من أراد الدخول على مولاه بغير حجاب فعليه بترك الشهوات •

قال المشايخ : ما أعز الله عبداً بمثل ما يدله على ذل نفسه ، وما أذل عبداً بمثل ما يرده إلى توهم عزه • قيل فى قوله تعالى :

« وتعز من تشاء وتذل من تشاء » •

تعز من تشاء بأن يكون لك بك معك بين يديك ، وتذل من تشاء بأن يكون فى أسر نفسه ،وغطاء شهواته ، وسجن أمانيه فيصبح محجوباً ، ويمسى محروماً ••• نعوذ بالله من ذلك •

فصـــل

فى معنى « الســـميع البصـــير »

سمعه وبصره سبحانه وتعالى صفتان له زائدتان على علمه خلافاً للقدرية ، وهمـا إدركان آخران ، فلا يخرج مسموع عن ســمعه ، ولا موجود عن بصره ، ولا يحجبهما شيء ، فيسمع السر والنجوى ، ويبصر ما تحت الثرى .

فمن عرف أنه بهذه الصفة كان من أدبه دوام المراقبة ، ومطالبة النفس بدقيق المحاسبة .

حكى أن بعض الملوك كان له عبد يقبل عليه أكثر مما يقبل على أمثاله ، ولم يكن أحسن منهم صـورة ، ولا أكثر منهم قيمة ، فكانوا يتعجبون من ذلك ، فركب الملك يوماً إلى الصحراء ومعه أصحابه وعبيده ، ونظر إلى جبل بعيد عليه قطعة ثلج نظرة واحدة ثم أطرق . فركض ذلك العبد بفرسه قبل أن ينظر الملك إليه ، ولم يعلم الجماعة بشيء ، وما لبث إلا ساعة حتى عاد ومعه شيء من الثلج .

فقيل له : بم عرفت أن الملك أراد الثلج ؟

فقال : لأنه نظر إلى الجبل ، ونظر الملوك إلى شيء لا يكون عبثاً .

فقال الملك : أنا أقربه ، وأقدمه عليكم ، فإنكم مشغولون بأنفسكم ، وهو مشغول بمراقبة أحوالى .

ومن حفظ سمعه وبصره لله تعالى عما لا يحل سماعه ورؤيته أحبه ، فكان له سمعاً وبصراً ، فبه يسمع ، وبه يبصر كما جاء فى الخبر المشهور .

وحكى عن سهل بن عبد الله أنه (قال)[1] : مذ كذا سنة (و) أنا أخاطب الحق سبحانه وتعالى والناس يتوهمون أنى أخاطبهم .

---

(١) ناقصة فى م .

واعلم أن العبد إذا علم أن مولاه يسمع ما يقال ، ويرى به الأحوال ، فإنه يكتفي بسمعه وبصره عن انتقامه وانتصاره ، فإن نصرة الحق له أتم لنفسه ، قال الله عز وجل لنبيه عليه السلام :

« ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون » .

ثم انظر بماذا سلاه ؟ وبأى شيء خفف عليه حمل أثقال الأذى ؟ حيث قال :

« فسبح بحمد ربك » .

يعنى إذا تأذيت بسماع السـوء فيك منهم فاستروح بروح ثنائك علينا ، ولذة التنزيه والذكر لنا فإن ذلك يريحك ويشغلك عنهم ، ثم إنه عليه السلام لما قبل هذه النصيحة ، وامتثل لأمر ربه ، تولى نصرته والرد عنه ، فلما قيل إنه مجنون أقسم على نفى ذلك بقوله :

« ن والقلم وما يسطرون » .

تخفيفا لتنزيهه لما اشتغل عنهم بتنزيه ربه . ثم عاب الله تعـالى القادح فيه بالجنون بعشر خصال ذميمة بقوله :

« ولا تطع كل حلاف مهـين » .

إلى قوله :

« أسـاطير الأولين » .

وكان رد الله تعالى عنه ، وذمه لهم ، أتم من رده عن نفسه حيث كان من جملة القرآن باقياً على الألسنة إلى يوم القيامة .

فصـــــل

فى معنى « الحــكم العــدل »

الحكم هو الحاكم المحكم ، وحكمه (...)[١] عن الشىء على وصف فيكون ذلك من صفات ذاته ، ويكون حكمه أيضاً على عباده بشىء بمعنى خلقه ذلك الشىء على الوجه الذى يريد ، يقال : حكم لفلان بالنعمة أى أنعم عليه ، وحكم على فلان بالمصيبة إذا خلق له البلاء ، فيكون على هذا من صفات الفعل .

والعدل من صــفات ذاته بمعنى أن له أن يفعل فى ملكه ما يريد ، وجميع الخلائق بعض ملكه فيفعل فيهم ما يريد .

فمن عرف أنه العدل لم يستقبح بقلبه موجوداً ، ولم يستثقل منه حكما بل يستقبل حكمه بالرضا ، ويصبر تحت البلاء بغير شكوى لعلمه أنه عدل ، قال أبو عثمان المغربى[٢] قلوب العارفين فارغة لمفاجآت القدر .

واعلم أن الله تعالى حكم فى الأزل بما شاء ، فمن حكم له بالسعادة يسعد أبداً ، ومن حكم عليه بالشقاوة لا يسعد أبداً ، ولهــذا قيل من أقصته السوابق لم تدنه الوسائل ، ومن أقعده جده لم ينفعه كده .

واعلم أن الناس على أربعة أقسام : أصحاب السوابق وهم الذين تكون فكرتهم أبداً فيما سبق لهم من الله تعالى ليعلمهم أن الحكم الأزلى لا يتغير باكتساب العبيد ، وأصحاب العواقب وهم الذين يفكرون أبداً فيما يختم به أمرهم ، فإن الأمور بخواتيمها ، والعاقبة مستورة ، ولهــذا قيل : لا يغرنكم صفاء الأوقات ، فإن تحته غوامض الآفات ، وأصحاب الوقت وهم الذين لا يفكرون فى الســوابق وفى العواقب بل يشتغلون

---

(١) مشتبهة فى م .

(٢) أبو عثمان سعيد بن سلام المغربى أوحد عصره صحب ابن الكاتب والزجاجى مات بنيسابور سنة ٣٧٣ .

بمراعاة الوقت ، وبما[٣] كلفوا من أحكامه . ولهذا قيل : العارف ابن وقته ، وقيل ، الصوفى من لا ماضى له ولا مستقبل . وقيل إن إن بعض الفقراء رأى أبا بكر الصديق رضى الله عنه فى النوم فقال له : أوصنى .

فقال : كن ابن وقتك .

والقسم الرابع الذين الغالب عليهم ذكر الحق فهم مشغولون بشهود الحق عن مراعاة جميع الأوقات . وقال الجنيد[٤] رحمه الله دخلت على السرى[٥] يوماً فقلت له : كيف أصبحت ؟

فقال : ليس عند الله صباح ولا مساء .

أشار بذلك إلى أنه غير مطلع على الأوقات بل مستغرق فى شهود[٦] الوقت وقيل فى معناه :

لا كنت إن كنت أدرى كيف كنت ولا أكون إن كنت أدرى كيف لم أكن

يا من به صرت بين البث والحزن

وربما يزيد هذا الوصف ويغلب حتى يفنى العبد عن كل إحساس ، وعن فنائه أيضاً كما فى قوله تعالى :

« وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود » .

---

(٣) فى م (واذا ما كلفوا) وهى غير مقبولة .

(٤) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد سيد الطائفة وامامهم ، أصله من نهاوند ومنشؤه ومولده بالعراق ، وكان فقيها على مذهب ثور صحب السرى والمحاسبى والقصاب ومات سنة ٢٩٧ هـ ، وقد ذكر القشيرى فى رسالته جملة من اقوال الجنيد تدل على عظيم فضله وغزارة معرفته .

(٥) السرى السقطى خال الجنيد واستاذه وتلميذ معروف الكرخى كان أوحد زمانه فى الورع واحوال السنة وعلوم التوحيد مات سنة ٢٥١ هـ (طبقات السلمى) .

(٦) فى م (مستغرق بشهود) .

وحكى أن رجلا دق الباب على أبى يزيد فقال له[٧] : إيش تريد ؟

فقال : أبا يزيد   فقال : ليس فى البيت أبو يزيد !!

وحكى أن رجلا قال للشبلى : أين الشبلى ؟

فقال : مات لا رحمه الله !

وقيل إن ذا النون المصرى بعث رجلا إلى بسطام يتعرف أحوال أبى يزيد ويجيئه بها ، فذهب إليه فوجده فى المسجد فسلم عليه فقال له :

إيش تريد ؟

فقال : أبا يزيد .

فقال له : أين أبو يزيد ؟ أنا أيضاً فى طلب أبى يزيد !

فقال فى نفسه : هذا مجنون ، ضاع سفرى !

فلما رجع إلى ذى النون ووصف له ما رأى وسمع بكى ذو النون ، وقال : أخى أبو يزيد ذهب فى الذاهبين فى الله جل جلاله .

وقال أبو على الدقاق فى قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام :

((إنى ذاهب إلى ربى فيهـــدين)) .

كان ذاهباً فى الله فلهذا ذهب إلى الله ، فذهابه فى الله أوجب ذهابه إلى الله .. واعلم أن هذه الألفاظ توهم ظاهرها لمن لم يمارس علوم هذه الطائفة ، وأما من عرف حقائق الأصول ، وشـــم شيئاً من علومهم فإنه يقف على معانيها ، ويفهم مرموزهم فيها ، وحاشا الأولياء العارفين أن كلامهم يعترض فيه محقق .

---

(٧) فى م (فقيل له) وهى غير مقبولة .

فصل

فى معنى « اللطيف »

اللطيف فى اللغة له ثلاثة معان : أحدهما أن يكون عالماً بدقائق الأمور وغوامضها ومشكلاتها ، والثانى الشىء الصغير الدقيق وهو ضد الكثيف ، ومنه قيل لطف به فهو لطيف إذا رفق به ، وأوصل إليه منافعه من حيث لا يعلم ولا يقدر على الوصول إلى ذلك بنفسه ، وهذه هو المعنى الثالث • فاللطيف بالمعنى الثانى فى حقه مستحيل ، وبالمعنى الأول واجب وهو من صفات ذاته ، وبالمعنى الثالث وهو المحسن الموصل للمنافع برفق — ثابت ، وهو من صفات فعله •

وقوله تعالى :

« الله لطيف بعباده » •

يحتمل المعنيين : أن يكون عليماً بهم ، وبمواضع حوائجهم ، يرزق من يشاء ما شاء كما يشاء ، ولطيف بهم يحسن إليهم ، ويتفضل عليهم ويرفق بهم • فإن حملت الآية على صفة الذات كانت تخويفاً ، لأنها تدل على أنه العليم بخفايا الآفات ، ودقائق المخالفات ، فتكون بمعنى •

قوله تعالى :

« يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » •

فتوجب قبض العبد (حين) تذكره وصف الإطلاع (عليه) ، ولهذا قال بعض المشايخ : إن لكم من الآفات فى الطاعات ما يقوم مقام ارتكاب المخالفات ، وإن المفلس حقاً من ظن أنه موسر ، ثم بان له إفلاسه عند تصفح ديوانه •

قيل : من لطفه سبحانه بعباده أنه أعطاهم من النعم فوق الكفاية ، وكلفهم دون الطاقة •

قال تعالى :

« وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة » .

ما يفضل عن قدر الحاجة ، وقال فى صفة التكليف :

« وما جعل عليكم فى الدين من حرج » .

ولهذا سهل على عبده الأمر حتى إنه فرض عليه خمس صلوات ، فى اليوم والليلة ، ولم يكلفه أن يؤديها جملة واحدة . (بل رضى منه بأدائها)[١] منجمة متفرقة ، وأعطاه من الرزق ما يكفيه لسنة أو لسنين كثيرة وهو يشكو أو يتسخط .

ومن لطفه بعباده أنه يوصل إليهم ما يحتاجون إليه من غير تكلف مشقة تقتضيها تلك النعمة ، ومثاله من قوته رغيف ، لو فكر فيه لعلم كم عين سهرت فيه من أول الأمر حتى تم وصلح للأكل ، من الحارث والباذر وساقى الزرع والحارس والحاصد والدارس والمذرى والطاحن والعاجن والخابز ، وتتشعب من ذلك الآلات التى تتوقف عليها هذه الأعمال من الأخشاب والحجارة والحديد والحبال والدواب بحيث يكاد لا ينحصر ، وهكذا كل شىء ينعم به على عبده من مطعوم ومشروب وملبوس ، فيه مقومات[٢] كثيرة لو احتاج العبد إلى مباشرتها بنفسه لعجز عن ذلك .

ومن لطفه بهم أيضاً توفيقهم للعبادات والطاعات ، وحفظهم من الوقوع فى المعاصى والزلات ، وحفظ التوحيد فى قلوبهم ، وتثبيتهم على الإيمان ، وإبقاء المعرفة عليهم مع وجود الزلات — وهو أعجب من إخراج

---

(١) مشتبهة فى م ومقروءة فى س .

(٢) فى م (مقدمات) والمعنى يسيغ هذه وتلك .

اللبن من بين فرث ودم ، ولكن سنة الله سبحانه حفظ كل لطيفة فى طى كل كثيفة ، وصيانة الودائع فى المواضع المجهولة .. ألا ترى أنه جعل التراب الكثيف معدن الذهب والفضة وغيرهما من الجواهر ، والصدف معدن الدر ، والذباب معدن الشهد ، والدود معدن الحرير ؟ وكذلك جعل قلب العبد محلا ومعدناً لمعرفته ومحبته وهو مضغة لحم .

فصـــــل

فى معنى «الخبـــير»

بمعنى العليم ، وهو من صفات ذاته عز وجل ، ويجوز أن يكون بمعنى المخبـــر أى فعيل بمعنى مفعل ، وكلا المعنيين صحيح فى حقـــه سبحانه ، فمن عرف أنه خبير بأحواله كان محترزاً فى أقواله وأفعاله ، واثقاً بجميع اختياره ، متحققاً أن ما قسم له لا يفوته ، وما لم يقسم له لا يدركه ، فيرى جميع الحوادث من الله سبحانه فتهون عليه الأمور ، بخلاف من يضيف بعض الحوادث إلى الحق وبعضـــها إلى الخلق فإنه يكون أبداً فى تعب .

وإذا عرف العبد أنه مطلع على سره ، عليم بخفى ما فى صدره ، يكتفى من سؤاله برفع همته إليه ، واستحضار[1] حاجته فى قلبه من غير أن ينطق بلسانه .

حكى أن رجلا جاء إلى أبى يزيد وقال : إن الناس قد احتاجوا إلى المطر فادع الله تعالى يرزقهم ذلك .

فقال أبو يزيد : يا فلان أصلح الميزاب ، ولم يتكلم بغير ذلك ، ولم يفرغ المأمور من إصلاح الميزاب حتى جاء المطر .

حكى أن رجلا فكر يوماً وقال : عمرى كذا وكذا سنة ، يكون منها كذا وكذا شهراً ، يكون منها كذا وكذا يوماً ، فبلغ عمره من الأيام ألوفاً كثيرة ، فقال : لو لم أعص الله تعالى كل يوم إلا معصية واحدة لكان فى ديوان عملى كذا وكذا ألف معصية ، فكيف وإنى فى كل يوم عملت كثيراً من المعاصى ، ثم صاح وفارق الدنيا .

---

(١) فى م (واحضار) .

فصـــل

فى معنى « الحلـــيم »

قيل الحلم تأخير العقوبة عن المستحق لها فيكون من صفات فعله يوصف به فى الازال[١] ، وقال أهل الحق : حلمه إرادته تأخير العقوبة فهو من صفات ذاته لم يزل حليما ولا يزال ، فيؤخر العقوبة عن بعض المستحقين ، ثم قد يعذبهم ، وقد يتجاوز عنهم ، ويعجل العقوبة لبعضهم ، فالأمر فى ذلك على ماسبق به الحكم فى الأزل ، وتعلقت به الإرادة والعلم .

حكى أن إبراهيم عليه السلام لمـــا رأى ملكوت السموات والأرض رأى عاصياً فى معصيته فقال اللهم أهلكه ، فأهلكه الله تعالى ، ثم رأى آخر فدعا عليه فأهلكه الله ، ثم رأى آخر فدعا عليه فأهلكه الله ، ثم رأى رابعاً فدعا عليه فأوحى الله تعالى إليه : قف يا إبراهيم فلو أهلكنا كل عاص رأيته[٢] لم يبق من الخلق أحد ، ولكنا بحلمنا لا نعذبهم فإما أن يتوبوا ، وإما أن يصروا ، فلا يفوتنا شىء .

ومن حلمه أنه لا يستفزه إصرار العاصين ، ولا يحمله على سرعة الانتقام انهماك المؤمنين ، فيحلم حتى يظن الجاهل أنه ليس يعلم ، ويستر حتى يتوهم العمى[٣] أنه ليس يبصر .

---

(١) فى م (لا يزال) .
(٢) فى م (رأيناه) .
(٣) مشتبهة فى م .

فصـــل

فى معنى « العظــــيم »

معناه عند أهل التحقيق يرجع إلى استحقاقه لصفات العلو والمجد ورفعة القدر .

والعظيم بمعنى كبير الأجزاء ، وهذا محـــال فى حقه عز وجل

ومن صفات العلو استحقاقه وجوب القدم والوحدانية ، وانفراده بالقدرة على الإيجاد ، وشمول علمه لجميع المعلومات ، وشمول قدرته لجميع المقدورات ، وإدراك سمعه وبصره لجميع المسموعات والمرئيات ، واستغناؤه عن الأنصار والأعوان ، وتقدسه عن المكان والزمان ، وتنزه ذاته عن قبول الحدثان .

حكى أن بعض المشايخ سئل عن عظمته جل وعلا فقال : ما تقول فيمن عنده[1] واحد اسمه جبرائيل له ستمائة جناح لو نشر منها جناحين لســتر الخافقين . وهذا وإن كان صحيحاً فإن من عرف أن مقدوراته لا نهاية لها ، فلو أراد أن يخلق فى طرفة عين الألف الألف عالم لم يكن ذلك عليه بأشق من خلق بقة ، ولا خلق البقة بأهون عليه من خلق تلك العوالم — لم يستعظم خلق جبرائيل عليه السلام .

وفى بعض الأخبار أن ملكاً قال : يارب أريد أن أرى العرش فزد فى قوتى حتى أطير لعلى أدرك العرش ، فخلق الله له ثلاثين ألف جناح وطار ثلاثين ألف سنة فلم يقطع قائمة العرش ، فاستأذن فى الرجوع إلى مكانه فأذن له .

وقيل إن سليمان عليه السلام سأل الله تعالى أن يضيف يوماً جميع الحيوانات فأذن له فى ذلك ، فجمع الطعام مدة طويلة ، فأرسل الله حوتاً

---

(١) فى م (عند) .

فأكل جميع ما جمعه ثم سأله الزيادة ، فقال له سليمان : أأنت تأكل كل يوم مثل هذا ؟

فقال : كل يوم ثلاثة أضعاف هذا ، فليتك لم تضفنى ، ولا أحالنى الله عليك .

وقيل إن موسى عليه السلام أراد أن يرى السمكة التى عليها العالم فأمره الله تعالى أن يأتى شط البحر ، فصعدت سمكة من البحر نحو السماء فلم تزل تصعد ثلاثة أيام ولم تتفرغ . فقال موسى : إلهى .. شىء مثل هذا ! ؟

قال الله تعالى : إنها تأكل كل يوم آلافاً مثل هذه .

قال تعالى :

« وما يعلم جنود ربك إلا هو » .

ثم أعظم من ذلك كله همـــة العارفين التى تضيع وتتلاشى فيهـــا كل (...)[٢] فضلا عن المخلوقات .

---

(٢) مشتبهة فى م وناقصة فى س .

فصـــــل

فى معنى « الغفــور والشــكور »

قد سبق الكلام فى معنى المغفرة فى اسم الغفار ، والشــكور من أسمائه ورد به الكتاب ، وهو مبالغة من الشاكر ، والشاكر من له الشكر ، والشكر عند أهل التحقيق الاعتراف بالنعمة على سبيل الخضوع ، والله تعالى سمى نفسه شكوراً على معنى أنه يجازى العبد على الشكر ، سمى جزاء الشكر شكراً كما سمى جزاء السيئة سيئة فى قوله تعالى :

« وجزاء ســيئة ســيئة مثلهــا » .

(قال الإمام القشيرى رحمه الله)[1] والذى أختاره وأرتضيه أن حقيقة الشكر الثناء على المحسن بذكر إحسانه فالله شكور بمعنى أنه كثير الثناء على عبده بذكر أفعاله الحسنة وطاعاته ، ومبالغة الشكر فى وصفه بمعنى أنه يعطى الثواب الكثير على اليسير من الطاعة : من قولهم دابة شكور إذا أظهرت من السمن فوق ما تعطى من العلف ، ونبت شــكور إذا كان يتغذى[2] بيسير من المــاء .

حكى أن رجلا رؤى فى المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟

فقال : أقامنى بين يديه وقال خفتنى كل ذلك الخوف أما علمت أنى كــريم ؟ !

(ومن آداب)[3] من عرف أنه الشكور أن يجد فى شكره ولا يفتر ، ويواظب على حمــده ولايقصر .

والشكر على أقسام : بالبدن وهو ألا تستعمل جوارحك فى غير

---

(١) هذه زيادة فى م أوردها الناسخ .

(٢) فى م وردت (يتجزى) .

(٣) ناقصة فى م .

طاعته ، وشكر بالقلب وهو ألا تشغل قلبك بغير ذكره ومعرفته ، وشكر باللسان وهو ألا تستعمله فى غير ثنائه ومدحه ، وشكر بالمال وهو ألا تنفقه فى غير رضاه ومحبته .

وقيل الشكر هو ألا تستعين بنعمه على معاصيك . ومن أمارات الشكر الزيادة فى النعمة .

قال الله تعالى :

« لئن شكرتم لأزيدنكم » .

قال بعض العارفين فى معنى قوله :

« وقليل من عبادى الشكور » .

قليل من يشهد النعمة منى ، لأن حقيقة الشكر الغيبة عن شهود النعمة بشهود المنعم .

فصـــــل

فى معنى « العـــــلى الكبـــــير »

ليس علوه علو جهة ، ولا كبره بكبر جثة ــ سبحانه عن ذلك ــ بل علوه استحقاقه لنعوت الجلال والكبرياء ، وبهذا التفســير لم يزل عالياً عليـــاً . ولا يقال فى وصفه بالكبير كبر يكبر ، ولا كبر يكبر .

ومن علوه وكبريائه أنه لا يزيده تعظيم العباد له وإجلالهم إياه شيئاً فى علوه وكبريائه بل من وفقه لإجلاله وتعظيمه فقد أجله وعظمــه بتوفيقهم (إلى ذلك) ، ومن عرف عـــلوه وكبرياءه تواضع وتذلل بين بين يديه ، وبين يدى الصالحين ، فعند ذلك يرفع الله قدره .

روى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام أن يأتى بالجبل ليكلمه ، فتطاول كل جبل طمعاً فى كونه محلا للمناجاة ، وتصاغر طور سينا ، وقال :

متى أستحق أن أكون محـــلا لقدم موسى عليه الســـلام فى وقت المناجاة ، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن إئت جبل سينا لتواضعه .

وحقيقة التواضع قبول الحق ممن قاله ، والتكبر جحود الحق .

قال الله تعالى :

« وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم » .

وقال :

« إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون » .

حكى أن رجلا قال لمالك بن فضول : اتق الله ، فالصق خده بالتراب وقال : سمعاً وطاعة .

فصـــل

فى معنى « الحفيـــظ »

من أسمائه سبحانه وتعالى ورد به الكتاب ، وهو فعيل مبالغة من الحافظ فهو الحافظ لعباده فى جميع الأحوال ، فهو الحافظ للســموات والأرض .

قال تعالى :

« ولا يئوده حفظهما وهو العلى العظيم » .

وقال :

« إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » .

وهو حافظ القرآن عن التبديل والتغيير ، فإنه أنزل التوراة على موسى عليه السلام ،والله وكل حفظها إلى أمته فقال :

« بما استحفظوا من كتاب الله » .

فحرفوه وبدلوه ، وأنزل لنا القرآن على محمد ﷺ وضمن حفظه على أمتـــه بقوله تعالى :

« إنا نحن نزلنـــا الذكر وإنا له لحافظـــون » .

فلا جرم أن الله تعالى عصم أمة محمد وغيرهم عن تبديل القرآن وتغييره ، فلو أخطأ مخطىء فى حركة من حركات حروف القرآن أوسكون ، لأنكر عليه وخطأه ألوف من الصبيان فضلا عن القراء .

ومن حفظه سبحانه حفظه لقلوب أوصيائه على خلوص المعرفة من الأهواء المختلفـــة .

ومن حفظه خلقه ملائكة لحفظ بنى آدم من البلاء والآفات .

قال تعالى :

« **له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من امر الله** » ٠

وقيل من حفظ (الله)[١] جوارحه حفظ الله عليه قلبه ، ومن حفظ لله حقه حفظ الله عليه حظه ٠ حكى أن لصاً دخل فى حجرة رابعة[٢] فسرق ملاءتها وهى نائمة وقصد الخروج ، فخفى عليه الباب فوضعها ، وأبصر الباب هكذا مراراً ، فهتف به هاتف ضع الملاءة فإنا الحافظون لها ، فوضعها وانصرف ٠

ومن أعجب ما ورد فى هذا الباب قصة أم موسى عليه السلام حين رجعت إلى الله بصدق التوكل انظركيف ألهمها ماذكره فى قوله تعالى:

« **وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ٠٠٠** » **الآية** ٠

فربط على قلبها وحفظ لها ولدها ، ورده إليها ٠

---

(١) فى م (الله) .

(٢) رابعة زاهدة مشهورة غنت فى الحب الالهى اعذب الألحان ، ولدت وعاشت فى البصرة ، وبدات حياتها كما يذكر العطار فى (تذكرة الأولياء نشر نيكلسون ط ص ٦١) عازفة على الناى ، ثم تابت بعد ذلك وسلكت طريق العبادة والزهادة ، وانتهى بها الأمر الى محبة الله حباً نقياً من كل غرض ، لا طمع فيه فى ثواب ، ولا جزع فيه من عقاب ، ولها فى هذا الحب اشعار جميلة رقيقة . واختلطت على بعض الباحثين أخبارها بأخبار أخريات يحملن نفس اسمها كرابعة الشامية .

فصــــل

فى معنى « المقيــت والمقتــدر »

المقيت قيل الحفيظ ، وقيل معطى القوت من قاته وأقاته إذا أعطاه القوت ، وفى الحديث : (كفى المرء إثما أن يضيع من يقوت) ويروى (من يقيت) •

والله سبحانه جعل أقوات عباده وخلقه مختلفة ، فمنهم من جعل قوته الأطعمة والأشربة على اختلاف أنواعها وأوصافها وهم الآدميون وغيرهم من الحيوان ، ومنهم من جعل قوته الطاعة والتسبيح ، وهم الملائكة ، ومنهم من جعل قوته المعانى والمعارف والعقل وهى الأرواح • وبالعقل نظام جميع المحاسن ، قيل إن جبرائيل عليه السلام جاء إلى آدم عليه السلام وقال إنى أتيتك بثلاثة أشياء فاختر منها واحداً فقــال : وما هى ؟ قال : العقل والدين والحياة • فقال : اخترت العقل ، فقال جبريل للدين والحياء : انصرفا ، فقد اختار العقل ، فقالا : إنا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان •

ولهذا قيل ما خلق الله شيئاً أشرف من العقل ولا أحسن منه ، ولم يعط أحد كمال العقل •

واعلم أن الله تعالى إذا شغل عبداً بطاعته قيض له من يقوم بخدمته، وإذا شغله بمتابعة شهوته ، وتحصيل أمنيته ــ وكله إلى حوله وقوته ، ألا ترى إلى آدم عليه السلام كيف أقامه ، وصان من المحن أوقاته ، وكفاه كل شغل ، وأولاه كل بر ، فأسكنه جنته ، وقال له :

« إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى »•

فلما نسى عهده ، مال إلى شهواته فلقى ما لقى •

فصـــــل

فى معنى « الحســيب الـكافى »

يقال أعطانى حتى أحسبنى أى حتى قلت حسبى أى كفانى ، فيكون الحسيب المحسب كالأليم بمعنى المؤلم والوجيع بمعنى الموجع •

وإذا كان بمعنى المحاسب كان فعيلا بمعنى مفاعل كأكيل بمعنى مؤاكل ، وشريب بمعنى مشارب ،وكذلك نـــديم وجليس وقعيـــد •• وما أشبه ذلك •

وكفايته لعبده أن يكفيه فى جميع أحواله وأشغاله ، وأجل الكفايات ألا يعطيه إرادة الأشياء ، فإن حفظه عن إرادة الأشياء أتم وأكمل من قضاء حاجاته بعد الإرادة ، فإذا علم العبد أنه كافيه لم يرفع حوائجه إلا إليه ، فهو سريع الإجابة لمن انقطع إليه ، وتوكل فى جميع أحواله عليه ، لا سيما إذا كانت حاجته فى حق الله محضاً ، لأنها إذا كانت فى حظ نفسه ربما يتأخر قضاؤها • ومن علم أنه كافيه لا يستوحش من إعراض الخلق ، ولا يستأنس بقبولهم ، ثقة بأن الذى قسم له لا يفوته وإن أعرضوا ، والذى لم يقسم له لا يصل إليه وإن أقبلوا ، فإذا دام على هذه الحالة فعن قريب يرضيه مولاه بما يختار له فيؤثر بعد ذلك العـــدم على الوجود ، والفقر على الغنى ، ويستريح ويستأنس بعدم الأسباب أكثر مما يستريح ويستأنس أبناء الدنيا بوجود الأغراض والأسباب •

ومن علم أنه يحاسبه علم أنه يطالبه غداً بالكبير والصغير ، ويحاسبه على النقير والقطمير ، فعند ذلك يحاسب نفسه قبل أن يحاسب ،ويطالب قلبه بالقيام بحقوقه قبل أن يطالب •

فصـــل

فى معنى « الجليــل الجميــل »

الجليل المستحق لأوصاف العلو والرفعة ، والجميـل قيل بمعنى الجليل ، وقيل الجليل المحسن ، والجميل المجمل فعيل بمعنى مفعل كأليم ووجيـع •

واعلم أنه عز وجل يكاشـف القلوب مرة بوصف جـلاله ، ومرة بوصف جماله ، فإذا كاشفها بوصـف جلاله صارت أحوالها دهشـاً فى دهش ، وإذا كاشفها بوصف جماله صارت أحوالها عطشاً فى عطش ، فمن كاشفه بجلاله أفناه ، ومن كاشفه بجماله أحياه ، فكشف الجلال يوجب (محواً)[1] وغيبة ، وكشف الجمـال يوجب صحواً وقربة ، فالعارفون كاشفهم بجلاله فغابوا ، والمحبون كاشفهم بجماله فطابوا ،فمن غاب فهو مهيم ، ومن طاب فهو ميتم •

واعلم أن العابدين شهدوا أفضاله فبذلوا نفوسـهم ، والعارفين شهدوا جلاله فبذلوا قلوبهم ، والمحبين شهدوا جماله فبذلوا أرواحهم ، فمن كان له علم اليقين شـهد جلاله ، ومن كان له حق اليقين شـهد جماله[2] •

---

(١) فى م (صحواً) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) ما قاله القشيرى فى « الجليل والجميل » مفيـد اعظم الفائدة فى تقسيم الطائفة الى مراتب ، وخصائص كل مرتبة .

فصــــل

فى معنى « الكــــريم »

قال أهل الحق : الكريم من صفات ذاته ، لم يزل كريما ولا يزال كريماً ومعناه نفى الدناءة (عنه) والعرب تسمى الشىء الحسن الخطير النفيس كريماً •

ومنه قوله تعالى :

« أجراً كريماً » و « رزقاً كريماً » •

فنفى الدناءة فى حقه باستحقاقه صفات الجلال ، وقيل الكريم فى وصفه بمعنى المحسن المجمل ، الكثير العطاء والإحسان •

وقال الجنيد : الكريم الذى لا يحوجك إلى وسيلة ، وقال الحارث المحاسبى[1] الكريم هو الذى لا يبالى من أعطى •

وقيل هو الذى لا يستقصى •

ومنه قوله تعالى فى وصفه عليه السلام :

« فلما نبأت به ، وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض » •

وقال أبو على الدقاق هو الذى إذا عفا عن عبد عفـــا عمن له مثل معصيته ، وعمن كان سمياً له من العصاة مطلقاً •

---

(١) هو ابو عبد الله الحارث بن اسد المحاسبى عديم النظير فى زمانه علماً وورعاً ومعاملة وحالا ، بصرى الأصل مات ببغداد سنة ٢٤٣ هـ وقيل انه ورث عن ابيه سبعين الف درهم فلم يأخذ منها شيئاً ، قيل لأن أباه كان قدريا فرأى من الورع الا يأخذ من ميراثه شيئاً ، ومات وهو محتاج الى درهم ، ويحكى عنه أنه كان اذا مد يده الى طعام فيه شبهة تحرك على اصبعه عرق ، فكان يمتنع عنه (الرسالة القشيرية) .

وقيل هو الذى لا يرضى أن يرفع إلى غير ربه حاجته .

وقيل هو الذى لا يخيب رجاء الآملين .

وقيل هو الذى لا يضيع من توسل به ، ولا يترك من التجأ إليه ، ويحفظ حقوق خدمته إذا ماتوا . وقيل هو الذى إذا أذنبت اعتذر عنك ، وإذا هجرت وصلك ، وإذا مرضت عادك ، وإذا قدمت من السفر زارك ، وإذا افتقرت أحسن إليك بنفسه وماله . وقيل هو الذى إذا رفعت إليه حاجة عاتب نفسه كيف لم يبادر إلى قضائها قبل أن تسأله .

والعرب تسمى شجرة العنب الكرم إلا أنه خفف لكثرة دورانه على ألسنتهم ، وإنما سموه كرماً للطافة شجره ، وطيب ثمره ، ويأتى قطافة من غير تكلف مشقة صعود أو غيره ، وليس فيه شوك يعقد جوانبه كما للنخل . وفى الحديث : « لا تقولوا لشجرة العنب الكرم لأن المؤمن أولى باستحقاق هذه التسمية لما فيه من كرم السجايا » (خلق)(٢) .

---

(٢) زائدة فى ﻫ وربما كانت (والخلق) .

فصـــــل

فى معنى « الرقيـــب الحفيـــظ »

ومنه سمى الملك الموكل بالإنسان رقيباً ، فقال :

« ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب » •

فالله تعالى رقيب لعبـــاده أى حفيظ لهم ، يعلم أحوالهم ، ويعد أنفاسهم ، ومنه قولهم : راقبت الله إذا علمت أنه مطلع عليك فراعيت حقه • فالمراقبة عند أهل هذه الطائفة أن يصير الغالب على العبد ذكره بقلبه أن الله مطلع عليه على الدوام ، فيخاف ســطوات عقوبته فى كل نفس ، ويهابه فى كل وقت •

سئل بعضهم : لم يستعين الرجل على غض بصره عن المحظورات ؟

فقال : لعلمه أن رؤية الحق تعالى سابقة على نظره ذلك المحظور •

حكى عن سلمان الفارسى رضى الله عنه أنه كان إذا جن عليه الليل أخذ يصلى فإذا تعب جلس يسبح أنواع التسبيح ، فإذا تعب أخذ يبكى ، فإذا تعب أخذ يفكر فى جلال الله تعالى وعظمته ثم يقول لنفسه : استرحت فقومى إلى الصلاة ، فإذا تعب عاد إلى التسبيح ثم إلى البكاء ثم إلى الفكر ثم إلى الصلاة ، وهكذا حتى يذهب الليل كله •

فصـــل

فى معنى « المجيــب »

وهو من أسمائه سبحانه وتعالى ورد به الكتاب نصاً ، ومعناه فى وصفه أنه يجيب دعوة الداعين ، ويكشف ضرورة الطالبين ، ومن لطفه أنه يعطى قبل السؤال ، ويسدى بجزيل الثواب ، وإذا علم أن لأوليائه حاجة قضاها ذكرها بلسانهم ، وربما ضيق عليهم الحال ابتلاء وامتحانا ورفعاً لدرجاتهم بصبرهم وشكرهم فى السراء والضراء حتى أيسوا — تداركهم بجميل عوائده .

فصـــل

فى معنى « الواســـع »

قيل معناه فى وصفه عز وجل العالم •

قال تعالى :

« وسعت كل شىء رحمة وعلماً » •

وقال :

« وسع كرسيه السموات والأرض » •

قيل علمه •

وقيل هو الغنى •

قال الله تعالى :

« لينفق ذو سعة من سعته » •

أى ذو غنى من غنـــاه •

وقيل هو الواسع العطاء ، الكثير الخير وهو أقوى الأقوال ، وكثرة عطائه لا تعد ولا تحصى •

كما قال تعالى :

« وإن تعدوا نعمـــة الله لا تحصوها » •

واعلم أن نعم الله تعالى نوعان : نعمة نفع وهى نعمته التى أولانا إياها ، فنحن نراها ، ونعلمها • ونعمة دفع[1] وهى ما دفعه عنا من أنواع البلاء والآفات ، وهى نعمة مجهولة ، لأنا لا نعلم منها إلا اليسير النادر ، وهى أتم من نعمة النفع لأن دفع الضرر يقدم على جلب النفع ، ونعمة

---

(١) يطلق القشيرى على هذا النوع من النعم تسمية أخرى فى لطائفه وهى « نعم المنع » .

الدفع شاملة على الكفار أيضاً فى **الدنيا والآخرة** ، أما فى الدنيا فظاهر ، وأما فى الآخرة فلأنهم فى أى ألم وعذاب كانوا فالله تعالى قادر على أن يوصل إليهم ألما وعذاباً أشد من ذلك ، فإذا لم يوصل كان نعمة دفع •

واعلم أن نعمة الله تعالى على عبده فيما يقبضه عنه من الدنيا أكثر وأوفر من نعمته عليه فيما يبسط له منها لأن قربه منه بقدربعده عن الدنيا•

حكى أن وزير المعتصم بعث مالا إلى أبى الحسين النورى ليفرقه على أصحابه ، فوضـــعه النورى فى بيت ثم قال للفقراء ادخلوا البيت واحملوا منه بقدر حاجتكم ، فدخلوا ، فمنهم من أخذ دانقاً ، ومنهم من أخذ درهماً ، ومنهم من أخذ أكثر ، فلما خرجوا قال لهم : قربكم من الحق وبعدكم على مقدار ما أخذتم •

فصـــل

فى معنى « الحـــكيم »

من حكمته التى لا يعلم وجهها إلا هو تخصيصه قوماً بالسعادة فى الأزل من غير سبب سابق ، وتخصيصه قوماً بالشقاوة فى الأزل من غير سبب سابق أيضاً ، بل جف القلم فى حق الفريقين بمـا تعلق به العلم القديم أنه يود المؤمنين ويودونه •

قال :

« يحبهم ويحبـونه » •

وقال :

« والذين آمنـوا أشد حباً لله » •

وقال :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » •

أى سيخلق فى قلوبهم محبته ، ومحبة الله تعالى للعبد رحمته له وإنعامه عليه ، أو مدحه له وثناءه عليه ، فإن كانت بمعنى الرحمة والمدح والثناء كانت من صفات الذات ، وإن كانت بمعنى الإنعام والإحسان كانت من صفات الفعل •

ومحبة العبد لله تعالى طاعته له وموافقته لأمره ، أو تعظيمه له وهيبته فى قلبه ، وأجمع أهل الحقيقة على أن كل محبة تكون عن ملاحظة عوض[1] فهى معلولة ، بل المحبة الصحيحة هى المحبة الصافية من كل طمـع •

---

(١) فى س (غرض) والمعنى يتقبل هذه وتلك ، اذ يريد القشـيرى تصفية الحب الالهى من طلب العوض ، وأن ينقيه من الغرض .

فصـــل

فى معنى « المجيـــد »

المجيد فى وصفه تعالى بمعنى العظيم ، الرفيع القدر ، والمجد فى اللغة الشرف وقيل المجيد العطاء أى الكثير الإحسان .

ومن إحسانه إلى عباده الذى يخفى على أكثر الخلق حفظه عليهم قلوبهم ، وتصفيته لهم أوقاتهم ، وهذه هى النعمة الكبرى ، كما أن محنته العظمى محبة القلوب ، قال بعضهم كنت قاعداً عند سمنون(١) وهو يترنم فى نفسه ويضرب بيده على فخذه حتى انشق اللحم وسال الدم ويكرر قوله :

كان لى قلـب أعيش به ... ضـاع منى فى تقلبـه
رب فاردده على فقـــد ... ضـــاقت على بـــه

وقال بعضهم رأيت رجلا يطوف بالبيت ويقول :

وواحشتاه بعد الأنس ، واذلاه بعد العز ، وافقداه بعد اللقاء !

فقلت له : أذهب لك مال ؟ أم أصابتك مصيبة ؟

فقال : لا ، ولكن كان لى قلب فقدته .

وقال عبد الله بن خفيف(٢) : رأيت بمصر فقيراً يطوف على الناس ويقول :

---

(١) هو ابو الحسن سمنون بن حمزة صحب سريا السقطى ، والقصاب ، وهو من كبار مشايخ العراق ، مات بعد الجنيد ، ويشتهر بسمنون المحب ، وله فى المحبة اشعار رقيقة جميلة اما من انشائه او من انشاده .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازى صحب رويما والجريرى وابن عطاء مات سنة ٣٩١ هـ ، ومن أقواله : ليس على المريد شىء أضر من مسامحة النفس فى ركوب الرخص ، وله ايضاً : قربك منه تعـالى بملازمة الموافقات ، وقربه منك بدوام التوفيق .

ارحمونى ، فإنى رجل صوفى ذهب رأس مالى .

فقلت :

وهل للصوفى رأس مال ؟

فقال : نعم ، كان لى قلب فقدته .

واعلم أن الله تعالى إذا أراد أن يسعد عبداً أغناه بلا مال ، وكفاه بلا احتيال وأعزه من غير رهط وأشكال ، وإذا أراد أن يشقيه ختم له ببغتة فكر وفجأة نقمة .

فصـــل

فى معنى « البـــاعث »

الباعث هو الله لأنه يبعث العباد بعد الموت أى يحييهم .

قال الله تعالى :

« وأن الله يبعث من فى القبــور » .

وقيل المراد أنه باعث رسله إلى عباده .

قال تعالى :

« ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم » .

فمن تحقق أن الله يبعث بعد الموت للثواب أو للعقـــاب لم يبرح مشغولا بتصفح أحواله ، وتفتيش أعماله .

قيل إن رجلا من الصالحين رؤى فى المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟

فقال : غفر لى ورفع درجاتى :

فقيل : بماذا ؟

فقال : هاهنا يعاملون بالجود لا بالركوع والسجود ، ويعطون بالمنة لا بالخدمة ، ويغفرون بالفضل لا بالفعل .

ويكون الباعث فى وصفه أيضاً بمعنى أنه يبعث الخواطر الخفية فى الأسرار فمن دواع يبعثها إلى الحسنات ، ومن دواع يبعثها إلى السيئات.

فصـــــل

فى معنى « الشـــــهيد »

الشهيد هو العليم ومنه قوله تعالى :

« شـــهد الله » •

أى علم الله •

والشهيد الحاضر ، وحضوره سبحانه بمعنى علمه ورؤيته وقدرته ، والشهيد مبالغة من الشاهد ، والله تعالى شاهد على الخلق غداً •

قال تعالى :

« قل أى شىء أكبر شـــهادة قل الله » •

فالشهيد المشهود فكأنى عباده يشهدونه ، ويكون الشاهد والشهيد فى وصفه أيضاً بمعنى مبين الدلائل ، وموضح الحجج ، ومنه سمى الشاهد شاهداً لأنه مبين وموضح ، وإذا علم أن الله تعالى شهيد يعلم أفعاله ، ويرى أحواله شهد عليه بما يقاسيه لأجله ، وهان عليه ما يعانيه لرضاه •

قال تعالى :

« واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا » •

حكى أن رجلا كان يضرب بالسياط وهو يصبر ولا يصيح ، فقال له بعض المشايخ :

أما يؤلمك الضرب ؟

فقال : نعم •

قال : فلم لا تصيح ؟

فقال : فى الحاضرين لى محبوب يرقبنى فأخاف أن يذهب ماء وجهى عنده إن صحت •

فمن ادعى محبة الحق سبحانه وتعالى ولم يصبر على قرص نملة أو بعوضة ــ فكيف يكون صادقاً ؟ !

وأهل المعرفة لم يطلبوا مؤنساً سواه ، ولاطلبوا شيئاً غيره ، كما قيل:

أنتم سرورى وأنتم مشتكى حزنى
وأنتم فى ســواد الليــل سمارى
فإن تكلمــت لم ألفــظ بغــيركم
وإن ســكت فأنتم عقــد اضمارى

فصـــل

فى معنى « الحـــق »

الحق من أسمائه ، وهو بمعنى الموجود الـكائن ، وكذا معناه فى اللغة ، ومنه قوله عليه السلام « السحر حق » أى كائن موجود ، وكذا يقال الجنة حق ، والنار حق .

ويكون الحق فى وصفه بمعنى ذى الحق كقولهم رجل عدل ورضا أى ذو عدل ورضا ويكون بمعنى محق الحق .

وأكثر ما يجرى على لسان هذه الطائفة من أسمائه سبحانه وتعالى الحق ، لأنهم ارتقوا من شهود الأفعال إلى شهود الصفات ، ثم من شهود الصفات إلى شهود الذات .

ومن عرف أنه ذو الحق آثر حقه على حظه ، وعلامة صدقه فى ذلك الإيثار أن يسخر له خلقه .

والمبين فى وصفه سبحانه معناه أنه هو الذى يوضح الحق ويقلبه ، ويميزه عن الباطل بالحجج والبراهين ، ويبين من مكنونات[١] العـــدم ما لم يخطر ببال أحد من دقائق آثار الحكمة ، وعجائب متعلقات القدر ، ويبين لقلوب الواجدين[٢] على الخصوص شهود الربوبية بما يزيل الشبهة ويقوى الحجة[٣] .

---

(١) فى م (ميتومات) .
(٢) فى م (الموجودين) ويحتمل ان تكون (الموحدين) .
(٣) فى م (يقل) والمعنى يرفضها .

فصـــــل

فى معنى « الوكيــــل »

الوكيل الذى وكل إليه الأمر ، فهو فعيل بمعنى مفعول ، فمن عرفه وكل إليه أموره فهو المتولى لأحوال عباده ، يصرفهم على ما يشاء ويختار ، وإذا تولى أمر عبد بجميل العناية كفاه كل شغل ، وأغناه من كل غير ، فلا يستكثر العبد حوائجه لعلمه أن كافيه مولاه ، ولهذا قيل من علامات التوحيد كثرة العيال على بساط التوكل .

حكى أن أحمد بن خضرويه[1] لما حضرته الوفاة كان عليه دين سبعون ألف درهم فحضر غرماؤه فقال : يا إلهى : إن روحى رهن فى أيديهم ، فإن أردت قبضها فاقض حقوقهم ، فدق إنسان الباب وقال : ليخرج غرماؤه فخرجوا ، وقضى ديونهم ثم مات أحمد .

واعلم أن من جعل المخلوق وكيلا له فإنه يسأله الأجر ، وقد يخونه فى ماله ، وقد يخطىء فى تصرفه ، أويخفى عنه الأصوب والأرشد لصاحبه، ومن رضى بالله وكيلا أعطاه الأجر ، وحقق آماله ، وأثنى عليه ، ولطف به فى دقائق أحواله بما لا تهتدى إليه آماله ، ولا يحيط بتفاصيله سؤاله .

ومن جعل الله عز وجل وكيله لزمه أيضاً أن يكون وكيلا لله سبحانه على نفسه فى استثناء حقوقه وفرائضه وكل ما يلزمه ، فيخاصم نفسه فى ذلك ليلا ونهاراً لا يفتر لحظة ، ولا يقصر طرفة كما قيل :

على رقيب منك ثاو بمهجتى   إذا رمت تسهيلا على تصعبا

---

(١) ابن خضروية من كبار مشايخ خراسان صحب النخشبى والأصم ، والتقى بأبى يزيد ، وابن خضروية من مذكورى مشايخ خراسان بالفتوة توفى سنة ٢٤٠ هـ ومن كلامه القلوب جوالة اما أن تجول حول العرش واما أن تجول حـــول الحش (الحش : المرحاض) — فى الحرية تمام العبودية وفى تحقيق العبودية تمام الحرية. الصبر زاد المضطرين ، والرضا درجة العارفين. (طبقات السلمى) .

فصـــــل

فى معنى « القـــوى »

القوى فى وصفه بمعنى القادر ، وقد مضى تفسير القادر .

فصـــل

فى معنى « المتـــين »

المتين من أسمائه سبحانه وتعالى ورد به الكتاب وهو بمعنى القوى ، فهو على ما يشاء قدير ، لا يحتاج فى إمضاء حكمه إلى جند ومدد ، ومعين وعضد ، بل إذا أراد إهلاك عبد أهلكه بيده حتى يخنق نفسه أو يجرحها أو يحرقها أو يغرقها أو يفعل بها ما يكون سبباً لعدمها .

قال أبو على الدقاق : لما نادى نوح عليه السلام ابنه ، وأمره أن يركب معه فى السفينة فأبى ، وآوى إلى الجبل اتخذ بيتاً من زجاج لئلا يؤثر فيه الماء على مرور الأيام ، ودخل فيه ، وسد عليه المدخل ، فابتلاه الله تعالى بإدرار بوله حتى امتلأ عليه ذلك البيت بولا ، فغرق قوم نوح كلهم فى الماء وغرق ابنه فى بوله .

ومن علم أن مولاه على كل شىء قدير يقطع الرجاء عمن سواه ، وبفرد له سره كما قال الخليل عليه السلام « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع » ، أراد أنى سهلت طريقهم إليك ، وقطعت رجاءهم عمن سواك ، ثم قال : ليقيموا الصلاة أى شغلتهم بخدمتك خاصة ، وأنت أولى بهم منى ومنهم ، ثم قال : « فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم » ، أى إذا احتاجوا إلى شىء ذلل عبادك لهم فإنك على كل شىء قدير .

قال الجنيد رحمه الله : سمعت السرى يقول : إن فى قرى بغداد لله تعالى أولياء لا يعرفهم الخلق ، كنت أدور فى قرى بغداد على أرى منهم واحداً فقال هيهات أن تراهم ولكن كن منهم تراهم وأنت فى بيتك .

فصـــل

فى معنى « الـــولى »

الولى فى وصفه سبحانه وتعالى هو المتولى لأحوال العباد وأعمالهم، وقيل هو الولى فعيل بمعنى فاعل ، يقال ولى فلان كذا يليه ولايته فهو وال ، وولى له على المبالغة . والولى يكون بمعنى الناصر أيضاً يقال هؤلاء أولياء فلان أى أنصاره .

ومنه قوله تعالى :

« وما لهم من دون الله من أوليـــاء » .

وإنما سمى أولياء الله أولياء لأنهم أنصار دينه ، وأشياع طاعته .

وقوله تعالى :

« نحن أولياؤكم فى الحيـــاة الدنيـــا » .

بمعنى أنصاركم .

ويكون الولى أيضاً فى وصف العبد بمعنى المواظب على الطاعة ، وتكون الولاية أيضاً بمعنى المحبة ، والله ولى المؤمنين أى محبهم ، قال بعض العارفين : أخبر الله تعالى عن يوسف عليه الســـلام أنه قال : « أنت وليى فى الدنيا والآخرة » ، وعلم سبحانه أن فى هذه الأمة ضعفاء يرتكبون[1] الذنوب وليست لهم جسارة الدعوى ، فبدالهم بجميل فضله ، فقـــال :

« نحـــن أوليـــاؤكم » .

فشتان بين عبد يقول : أنت وليى وعبد يقال له : أنا وليك ، وليس هناك تفضيل لآحاد هذه الأمة على نبى الله لكن رفق الله بالضعفاء أكثر ،

---

(١) فى م (يركبون) .

وفضله منهم أقرب ، ولو لم يكن فى القرآن فى هذا الباب آية إلا قوله تعالى :

« إن الله مولى الذين آمنوا » .

لكفاهم ذلك شرفاً ومجداً .

واعلم أن العبودية للعبد نسبة ،وولاية الله ابتداء ، والنسبة لم تكن ، وما من الحق لم يزل ، ولأن يكون مالك بمعنى لم يزل خير لك من أن يكون مالك[٢] بمعنى لم يكن .

ومن علامات من يكون الحق وليه أن يصونه و (...)[٣] ويعينه على قلبه فى كل نفس بتحقيق آماله عند إشاراته ، وتعجيل مآربه عند[٤] خطراته .

قال بعض المشايخ : دخلت على ذى النون المصرى يوماً فقال لى :

أى شيء تقول الناس فى ؟

قلت : يقولون إنه زنديق .

فقال : الأمر سهل ، حيث لم يقولوا إنه يهودى ، فإن قلوب الناس تنفر من اليهود أكثر .

فخرجت من عنده فسمعت الناس يقولون : ذو النون يهودى ، فرجعت إليه وأخبرته ، فتبسم ، ثم إنهم سعوا به إلى السلطان ، وقصدوه ، فركبوا زورقاً ليأتوه ، فنظر إليهم ، وحرك شفته ، فكادوا

---

(٢) فى م (جمالك) والمعنى يرفضها .

(٣) مشتبهة فى م وساقطة فى س .

(٤) فى م (عن) وربما يقبلها المعنى على أساس أن الله يعجل للانسان، تحقيق مآربه من قبل أن يرد ذلك على خاطره ، راجع تعريف الخاطر فى رسالة القشيرى (ص ٤٦) .

يغرقون ، فتابوا وتضرعوا ، فقبل عذرهم . فمن لم ينتقم لنفسه انتقم الله له ،ومن لم ينتصر لنفسه انتصر الله له .

ومن علاماته أيضاً أن يديم توفيقه حتى لو أراد السوء أو قصد المحظور فيعصمه الله عن ارتكابه ، ولو مال إلى تقصير فى طاعة لم يتسهل له بل ينقلب ذلك توفيقاً وتأييدا ، فهذا من علامات السعادة ، وعكسه من علامات الشقاوة ، ومن علاماته أيضاً أن يرزقه مودة فى قلوب أوليائه ، فيجلب إليه زيادة الأفضال والإنعام من الله عز وجل .

فصـــل

فى معنى « الحميـــد »

فعيل بمعنى مفعول فهو محمود بحمده لنفسه ، وحمد خلقه له .

أو فعيل بمعنى فاعل فهو حامد لنفسه ، حامد للمؤمنين من عباده .

والحمد فى اللغة يكون بمعنى المدح والثناء ، ويكون بمعنى الشكر ويكون بمعنى الرضا ، يقال بلوته[١] فحمدته أى اختبرته[٢] فرضيته ... ويكون العاقبة يقال حماد أمرك أى عاقبة أمرك ، فقول القائل «الحمد لله» يصدق بأى اعتبار أخذ من هذه الوجود .

حمد العبد للرب إذا كان بمعنى المدح والثناء لا يقبل منه إلا إذا كان عن تحقق[٣] ، والتحقق عرفان القلب بما يثنى به الرب ، لأن الله تعالى نهى أن يقول العبد فى وصفه ما لم يعلمه وإن كان صادقاً فى قوله .

قال تعالى :

« وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » .

وإذا كان حمده بمعنى شكره فهو عبارة عن شهود المنعم لا عن شهود النعمة ، قال داود عليه السلام : إلهى كيف أشكرك وشكرى لك نعمة منك على ؟ فقال : الآن .. قد شكرتنى » .

فكم عبد يتوهم أنه فى نعمة يجب عليه شكرها ، وهو فى الحقيقة فى محنة يجب عليه الصبر عنها .

---

(١) فى م (تلوته) .
(٢) فى م (أخبرته) .
(٣) فى م (تحقيق) .

فصــــل

فى معنى « المحصــى »

ورد به الكتاب ، قال الله تعالى :

« وأحصى كل شىء عدداً » .

أى أحاط بكل شىء علماً ، ولهذا قيل فى قوله عليه السلام :

« إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة » أى من علمها .

ويجوز أن يكون المحصى فى وصفه بمعنى عاد الأشياء ، فمن آداب من علم أنه يحصى أنفاسه ، ويرعى له حواسه لعلم أنه قريب وعليه رقيب ، وعلم أنه يتكلف عد نعمــه عليه مع علمــه أنه لا يحصيها إلا هو كما قال تعالى :

« وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .

ليزجى[1] وقته بذكر أنعامه ، وشكر أقســامه ، فستوجب المزيد (من) مواهب إحسانه .

---

(١) فى م (ليرجى) .

فصـــل

فى معنى « المبـدى » و « المعيـد »

المبدىء المظهر ابتداء ، فالله تعالى مبدىء جميع الأشياء بالخلق والإنشاء ، يقال بدأ الله الخلق وأبداهم بمعنى .

والمعيد الخالق للشىء بعد ما عدم ، فالإعادة ابتداء ، فالله تعالى مبدىء الخلق ومعيدهم بالبعث والنشور يوم القيامة .

واعلم أن الله تعالى يبدى فضله وإحسانه لعبيده[١] ويكرره ، فإن الكريم من (...)[٢] صنائعه ، وهذا فى وصف المخلوق الذى إذا تركت سؤاله تركك ، فكيف فى وصف الخالق الذى كلما زدته سؤالا ، زاد حباً ونوالا .

ومن جميل فضله أنه يعيد لعبده أيامه الذاهبة ، وأوقاته الدارسة كما قيل :

لئن درسـت آثار ما كان بيننـا　　من الوصل ما شوقى إليك بدارس
وما أنا من أن يجمع الله بيننـا　　بأحسـن ما كنـا عليـه بآيس

وذهب جماعة من المشايخ إلى أن الأوقات ليس لها بدل ، فمن فاته وقته لا يكون له إليه وصول ، وأنشدوا :

فخل سبيل العين بعدك للبكا　　فليس لأيام الصفاء رجوع

قيل لما كثر بكاء داود عليه السلام أوحى الله تعالى إليه لم[٣] تبكى؟ إن كان بكاؤك خوفاً من النار فقد أمنتك ، وإن كان رجاء الجنة فقـد

---

(١) وردت فى س (ويعيده) .
(٢) مشتبهة فى م وفى س .
(٣) فى م وردت (كم) .

أعطيتك ، وإن كان لحديث الخصم فقد أرضيتك[٤] . فزاد داود فى البكاء ، وقال إنما أبكى لما فاتنى من صفاء ذلك الوقت[٥] ، فاردده على .

فقال : هيهات يا داود لا سبيل إلى رد ذلك الوقت !

واعلم أنهم لم يصلوا إلى تلك الأوقات ، فأوقات تأسفهم وتلهفهم عليها أتم من تلك الأوقات ، لأن ذلك حق الله تعالى منهم خالصاً وليس لهم كلية حظ ، ولهذا قال موسى عليه السلام : إلهى أين أجدك ؟

فقال : عند المنكسرة قلوبهم من أجلى .

---

(٤) فى م وردت (أرضيته) .
(٥) مشتبهة فى (س) وناقصة فى (م) .

فصـــل

فى معنى « المحيى المميت »

فى الحقيقة خالق الحياة والموت ، وهو الله تعالى الذى لا يقدر على ذلك غيره ، ثم اعلم أن هذه الطائفة أطلقوا لفظ الإحياء والإماته على حالتى الفرحة والترحة ، والمنحة والمحنة تجوزاً وتوسعاً كما يقال فلان أحيا فلاناً بجوده ، وأمات فلاناً بعقوبته أو بصده عنه وإعراضه ، فلهذا قال أهل الحقيقة : من أقبل على الحق أحياه ، ومن أعرض عنه أماته وأفناه وأنشدوا :

أموت إذا ذكرتك ثم أحيـــا فكم أحيـــا عليك وكم أموت

وقالوا : من كان فناؤه فى الله فهوحى وإن هلك ، ومن كانت حياته فى المخالفة فهو ميت وإن عاش وأنشدوا :

ليس من مات فاستراح بميت إنمـــا الميت ميت الأحياء

وقيـــل :

قد مات قوم وهم فى الناس أحياء : أى بذكـــــرهم الجميـــــل

وقيل فى قوله تعالى :

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء » .

أى بذكره الجميل لهم .

وعند القوم الإسلام هو ذبح النفوس بسيف المجاهدة ، والإيمان هو حياة القلوب بنور الموافقة ، ولهذا قالوا : لا يصح السماع إلا لمن كانت نفسه ميتة وقلبه حياً . ومن علامات من ماتت نفسه زوال آفاته ، وسقوط شهواته ، وقيامه بحقوق ربه وما فيه رضاه ،وتباعده عما فيه حظوظ نفسه ومنـــاه ، فيعيش مع الحق بالمروءة ، ومع الخلق بالفتوة ، فبمروءته لا يخالفه فى أوامره ، وبفتوته لا ينازع الخلق فى مطالبه ومآربه فيكون مع الله بالصدق ، ومع الخلق بحسن الخلق .

فصـــــل

فى معنى « الحى القيــوم »

الله تعالى حى ، وحياته صفة من صفات ذاته زائدة على بقائه فهو الدائم البقاء الذى لا سبيل لفنـــائه .

والقيوم مبالغة من القائم بالأمور ، يقال فلان قائم بهذا الأمر وقيم وقيام وقيوم ، فمعنى القيوم فى وصفه أنه المدبر والمتولى لجميع الأمور التى تجرى فى العالم .

ومن علم أنه الحى الذى لا يموت لا يعتمد على مخلوق لأن من اعتمد على مخلوق وتوكل عليه لوقت حاجته يحتمل فناؤه وقت حاجته إليه ، فيضيع رجاؤه وأمله .

قيل إن رجلا قال : إن صديقى فلاناً مات فمن كثرة ما بكيت عليه ذهب ، فقيل له : إن الذنب ذنبك حيث أحببت الحى الذى يموت ، هلا أحببت الحى الذى لا يموت حتى كنت تستغنى عن البكاء عليه .

قال بعضهم : إن الدنيا مع الموت لا تساوى شيئاً ، فقال : بل ولو لم يكن فيها موت ما كانت تساوى شيئاً . وأراد بذلك أن وصول العبد إلى مولاه لما كان موقوفاً على موته كان موته من جملة النعم فلو لم يوجد الموت ما وجد الوصول ، ولهذا قيل : الموت جسر يوصل الحبيب إلى الحبيب . وقيل من علامات الاشتياق إلى الله تعالى تمنى الموت على بساط العافية .

ومن عرف أنه القيوم بالأمور اســتراح من كد التدبير ، وتعب الاشتغال بغيره ،وعاش براحة النفس ، ولم يكن للدنيا عنده قيمة .

قال الأكابر : إن جميع كرائم الدنيا والعقبى أقل عند الله تعالى من تبنة واحدة عند سلطان ، ومن سأل سلطاناً أن يهبه تبنة فقد صغرت همته.

فصـــل

فى معنى « الواجـد المـاجد »

الواجد الغنى ومن الجدة وهى السعة والغنى ، وقيل العالم ومنه قوله تعالى :

« ووجـد الله عنـده » .

أى علمـه .

فمن عرف أنه عالم فعلامة ذلك أن يلتجىء إليـه ، والواجد فى اصطلاح هذه الطائفة الذى أصابه الوجد ، ومعنى الوجد عندهم ما يجده الإنسان ويصيبه فى قلبه من الأحوال من غير تطلب ولا تكلف ، وقيل الوجد مكاشفة الأسرار بمشاهدة المحبوب . وقال الشبلى الوجد فقد والفقد فى الوجد وجد .

وقيل الوجد وجود نسيم الحبيب كقول يعقوب عليه السـلام : « إنى لا أجد ريح يوسف » .

وقال الجنيد : الوجد انقطاع الأوصاف عن الشهود .

وقيل الوجد : نيران الأنس تثيرها رياح القدس .

وقال المرتعش[1] : من تواجد ولم ير من تواجده زيادة فى دينـه فينبغى أن يستحى ويتوب .

وقال أبو سعيد الخراز : كل وجد يظهر على الجوارح الظاهرة وفى النفس أدنى حمولة له فهو مذموم .

---

(١) هو عبد الله بن محمد المرتعش نيسابورى من محلة الحيرة وقيل من ملقاباذ صحب ابا حفص وابا عثمان (وهما من اعلام الملامتية) ولقى الجنيد مات ببغداد سنة ٣٢٨ هـ قيل له ان فلانا يمشى على الماء فقال : عندى أن من مكنه الله تعالى من مخالفة هواه فهو أعظم من المشى فى الهواء .
(الرسالة ص ٢٨) .

وقال النصراباذى[٢] : مواجيد القلوب تظهر بركتها على الأبدان ، ومواجيد الأرواح تظهر بركتها على الأسرار .

وقال الجنيد : لا يضر نقصان الوجد مع فضل العلم ، وإنما يضر فضل الوجد مع نقصان العلم .

وقال الجنيد : ذكر الوجد عند السرى فقال يبلغ بحيث لو ضرب وجهه بالسيف لا يحسه ، (وكان فى قلبى منه شىء حتى بان لى أن الأمر كذلك)[٣] وكان سهل بن عبد الله يقوى عليه الوجد فلا يأكل فى خمس وعشرين يوماً إلا مرة ويكون عليه قميص واحد وهو معرق فى الشتاء ، فإذا سألوه مسألة قال :

لا تسألونى فى هذا الوقت ، فإنكم لا تنتفعون بكلامى .

وقيل تواجد النورى فقام على رجله شهراً فى مسجد الشونيزيه ، وكان إذا حضر وقت الصلاة صلى ، ثم عاد إلى قيامه ، فقال بعضهم إنه (...)[٤] فبلغ ذلك الجنيد فقال : لا .. ولـكن أرباب المواجيد محفوظون بين يد الله تعالى لا يجرى عليهم لسان الذم .

وقيل : الوجد تقع عليه العبارة ، فأما الوجود فلا تقع عليه عبارة لأنه سر بين الله تعالى وعبده .

---

(٢) هو ابو القاسم ابراهيم بن محمد النصراباذى شيخ خراسان فى وقته صحب الشبلى والروزبارى والمرتعش . اقام بنيسابور ، ثم خرج فى آخر عمره الى مكة ومات سنة ٣٦٧ هـ (طبقات السلمى) .

(٣) ما بين قوسين تتمه للنص كما ورد فى رسالة القشيرى ص ٣٦ حيث توجد الفاظ مشتبهة فى س وناقصة فى م ، والكلام مستمر للجنيد .

(٤) مشـتبهة فى م وهى فى س (صاحى) ولم نثبتها فى النص لأنها لو كانت، كذلك لجاء رسمها (صاح) بدون ياء لأن المنقوص المرفوع تحذف ياؤه اذا خلا من اداة التعريف .

فصـــل

فى معنى « الواحــد الأحــد »

اسمان من أسمائه •

قال تعالى :

« **والهــكم إله واحــد** » •

وقال :

« **قل هو الله أحــد** » •

فالواحد حقيقــة هو الذى لا قســم له ، ولا يستثنى منه ، هذه حقيقته عند أهل التحقيق ، فقولهم دار واحدة مجاز لأنه يصح استثناء البعض منها •

قال ابن فورك رحمه الله : الواحد فى وصفه عز وجل له ثلاثة معان :

أحدهما لا قسم له لذاته فإنه غير متبعض ولا متجزىء •

والثانى أنه لا شبيه له ، تقول العرب فلان واحــد فى عصره أى لا نظــير له •

والثالث أنه لا شريك له فى أفعاله يقال فلان متوحد بهذا الأمر أى لا يشاركه فيه أحد ولا يعاونه •

والأولون قالوا هذه المعانى الثلاثة مستحقة لله تعالى ، ولكن لفظ التوحيد فيه حقيقة فى نفى القسمة مجاز فى الباقى •

وأما الأحد فأصله فى اللغــة وحد ، يقال رجل وحد ووحد بفتح الحاء وسكونها ووحيد أيضاً — كما يقال رجل فرد وفرد وفريد — فقلبت واوه همزة •

واعلم أن من الناس من لا يفرق بين الواحد والأحد فى المعنى ومنهم من يفرق ، فيقول الواحد اسم لمفتتح العدد يقال واحد اثنان ثلاثة •• ، والأحد اسم لنفى ما يذكر معه من العدد ، وقيل الأحد يذكر مع الجحد فيقال ما جاءنى أحد معناه نفى مجىء الواحد وما فوقه أيضاً ، ويقال

جاءنى واحد ولا يقال جاءنى أحد . وقيل الأحد إنما يذكر فى الإثبات فى وصف الله عز وجل على وجه التخصيص .

قال تعالى :

« قل هو الله أحد » .

ولا يقال هو الرجل الأحد ، ولا رجل أحد ولكن يقال فى وصفه وحيد وواحـــد .

والتوحيد هو الحكم بأنه سبحانه وتعالى واحد ، وذلك الحكم يكون بالقول ، وبالعلم ، وبالإشارة بالإصبع . والتوحيد ثلاثة : توحيد الحق سبحانه وتعالى لنفسه وهو علمه بأنه واحد وإخباره بأنه واحد ، وتوحيد العبد للحق وهو بهذا المعنى أيضاً ، وتوحيد الحق للعبد وهو إعطاؤه التوحيد وتوفيقه له .

قال الشبلى رحمه الله : التوحيد إفراد[١] القدم عن الحدث ، وقال ذو النون التوحيد أن تعرف « أن قدرة الله تعالى فى الأشياء بلا مزاج ، وصنعه للأشياء بلا علاج ، وعلة كل شىء صنعه ولا علة لصنعه ومهما تصور فى نفسك شىء فالله عز وجل بخلافه »[٢] .

وقيل التوحيد فناء الرسم بظهور الاسم ، وقيل التوحيد أن تعلم أن كل ما خطر ببالك مما ترقى إليه كيفيته أو تنتهى إليه كميته أو تنتمى إليه ماهيته ، أو تليق بوصفه إنيته — فالله جل جلاله بخلافه .

وقال بعضهم[٣] إنما لا يصح لك توحيد لأنه توحد بك ، وتطلبه بك ، يعنى هنا أنه ينبغى أن يعلم الموحد له والطالب له أن توحيده إياه به ، وكذا طلبه إياه به ، ويعلم أن وجوده إياه منه ، فهو المبتدىء بالفضل والمتمم له تبارك الله رب العالمين .

---

(١) فى م (اقرار) ، وافراد ادنى الى المعنى ، وقد جاءت فى تعريفات مماثلة أكثر من مرة فى الرسالة (باب التوحيد) .

(٢) ورد النص فى م (قدرة ... بلا علاج ، وصنعه ... بلا مزاج) والأقرب ماجاء فى س وهو متفق مع النص الذى ورد فى رسالة القشيرى ص٤ .

(٣) هو الشبلى كما جاء فى رسالة القشيرى ص ١٥٠ .

فصـــل

فى معنى « الصـــمد »

قيل معناه الباقى الذى لا يزول ، وقيل الدائم ، وقيل الذى لا يطعم، وقيل الذى لا جوف له ، وقيل الذى يصمد إليه فى الحوائج أى يقصد وهو الصحيح ، وقيل هو السيد الذى ينتهى إليه السؤدد وهذا يؤول إلى القول الذى قبله .

فمن عرف أنه الدائم الذى لا يزول بالفنـــاء والزوال[١] وقـــرب الارتحال ، فلا حظ الدنيا بعين الفناء ، فزهد فى حطامها ، ولم يرغب فى حلالها ، ولهذا قال الحكماء : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى لوجب على العاقل أن يزهد فى الذهب الفانى ويرغب فى الخزف الباقى ، فكيف والدنيا وجميع ما عليها فى الحقيقة تراب يفنى ؟ ! .

حكى أن رجلا اشترى داراً فحفر فيها موضعاً فوجد جرة فيها ذهب ، فمضى إلى البائع وقال له : إنى اشتريت الدار منك ولم أشتر الذهب .. فخذه . قال البائع : إنى بعتك الدار بما فيها .. فلا آخذه .

فتحاكما إلى القاضى ، فقال : ألكما أولاد ؟ .. فقال : أحدهما لى ابن ، وقال الآخر لى بنت .. فقال : زوجا أحدهما من الآخر وأنفقا الذهب عليهما فهذه صفة من لم يجعل للدنيا خطراً .

حكى أن رجلين تنازعا فى أرض فأنطق الله تعالى لبنة من جدار فيها فقالت : إنى كنت ملكاً من الملوك ، ملكت الدنيا ألف سنة ثم مت فصرت رميما ألف سنة ، فأخذنى إنسان واتخذنى خزفاً ، فاستعملت مدة ثم انكسرت وبقيت ألف سنة خزفاً ثم ضرب منى لبن ،وأنا فى هذا الجدار . فلم يتنازعا بعد هذا .

---

(١) وردت فى م (الذل) والزوال أقرب الى المعنى واكثر اتفاقا مع الفناء وقرب الارتحال .

ومن عرف أنه الذى لا يطعم وهو يطعم يتوجـــه فى طلب الرزق إليه ، ويتوكل فى جميع أحواله عليه ، ولا يتهمه فى رزقه فيستعين بغيره ، فإنه كما لم يشاركه أحد فى خلقه لا يشاركه أحد فى رزقه ، ومن يحتاج إلى ما يطلبه منه من مأكول أو مشروب أو ملبوس كما تحتاج أنت إليه — كيف تصدق الرغبة إليه فى مأمول ، أو يرجى منه النجح فى مسئول ؟ ! .

ومن عرف أنه الذى يصمد إليه فى الحوائج شكا إليه فاقته ، ورفع إليه حاجته وتعلق به[٢] بجميل تضرعه ، وتقرب منه بأصناف توسله .

حكى أن بعضهم زار قبر النبى عليه السلام وقال : إلهى .. إن غفرت لى سررت نبيك هذا وإن لم تغفر لى أشمت بى عدوك الشيطان ، وحاشاك أن تؤثر شماتة عدوك على سرور وليك .

---

(٢) فى م (وتملق اليه) .

فصـــل

فى معنى « القــادر المقتــدر »

كلاهما فى القرآن ، قال الله تعالى :

« عند مليك مقتــدر » .

والقادر من له قدرة ، وحقيقة القدر ما يتقدر بها المراد على حسب قصد الفاعل فى الوقوع ، ثم جهة الوقوع تختلف إلى خلق وكســب ، فقدرة الحق تصلح للخلق ، وقدرة العبد تصلح للكسب ، فالعبد لا يوصف بالقدرة على الخلق ، والحق لا يوصف بالقدرة على الكسب .

ومن عرف أنه عز وجل قادر خشى من سطوات عقوبته عند مخالفته ، وأمل لطائف رحمته ونعمته ، عند سؤاله وحاجته لا بوسيلة طاعته[1] ، بل بكرمه ومنته .

وكذلك أيضاً من عرف أنه قادر سكن عن الانتقام ثقة من انتقامه ، فانتصاره له أتم من انتقامه لنفسه ، ولهذا قيل : احذروا من لا ناصر له غير الله .

واعلم أن الله تعالى كريم ، يقدر لكنه يغفر ، ويعلم لكنه يحلم . روى أن حملة العرش ثمانية ، أربعة تسبيحهم سبحان الله عدد عفوه ، وأربعة تسبيحهم عدد حلمه بعد علمه .

---

(١) لاحظ هنا راى القشيرى فى مسالة العمل الانسانى ، انى قيمة هذا العمل لا تؤدى الى ثمرة الا اذا كان الحق يلهم به ويسدد فيه ويعين عليه ، اما اذا ظن العبد ان عمله وحده موصله الى شىء فيصدق عليه قول رابعة : ان استغفارنا فى حاجة الى استغفار .

فصــــل

فى معنى « المقــدم المؤخــر »

معناهما فى وصفه سبحانه تقديمه بعض الأحوال على بعض ، وتأخير بعضها عن بعض ، فى الوقت أو فى الرتبة ، وهما من دلائل إراداته وفعله .

واعلم أن أولياء الله تعالى مختلفون ، فمنهم من يجتهد أن يكون مقدماً بجده وجهده فى العبادة والخدمة ، ولا يرضى بالتخلف عن السابقين من إخوانه وأنشــدوا :

السباق السباق قــولا وفعــلا　　حذروا النفس حسرة المسبوق

واعلم أن الله تعالى قدم قوماً فى سابق حكمه ، فربما يجرى عليهم فى الظاهر أوصاف المطردين (ويتهمهم)[1] مقام المبعدين ، وهم من أهل رحمته بالحكم السابق .

وقيل كان ببغداد رجل صالح أذن خمساً وعشرين سنة ، دخل يوماً من أيام شهر رمضان دار أخيه بعدما أذن الظهر فرآهم يشربون الخمر ، فحلف أخوه بالطلاق ليشربن هو أيضاً معهم قدحاً واحداً ، فشرب لئلا تطلق امرأة أخيه ، ثم أستدرجه الخمر فشرب ثانياً وثالثاً حتى سكر ، فطلبوه لإقامة الصلاة ، فحلف ألا يصلى أبداً ومات فى سكره ذلك ، فكان ممن أخره الله تعالى فى سابق حكمه ، فلم ينفعه طول جهــده وعنائه ، نسأل الله تعالى حسن العاقبة بحسن توفيقه .

---

(١) هكذا فى م ومشتبهة فى س .

فصــــل

فى معنى « الأول » و « الآخر » و « الظاهر » و « الباطن »

أول وزنه أفعل ، من آل يؤول مثل أعوذ من عاذ يعوذ ، فأصله أو أل قلبت الهمزة الثانية واوا فاجتمع واوان فأدغمت إحداهما فى الأخرى فصار أول ، وتأنيثه أولى كأكبر وكبرى ، وآخر بفتح الخاء تأنيثه أخرى .

والأول فى وصفه بمعنى القديم الأزلى الذى لا ابتداء له ، والآخر فى وصفه بمعنى أنه لا انتهاء له ، ولا انقضاء لوجوده .

والظاهر فى وصفه سبحانه بمعنى القاهر لخلقه ، من قولهم ظهر فلان على فلان أى قدر عليه وقهره .

والباطن فى وصفه عز وجل بمعنى العليم بخلقه ، المدبر لأحوالهم . وقيل معناه الظاهر للعقول السليمة بآياته وبراهينه ، ودلائل توحيده ، والباطن المتعزز على قوم ، المحتجب عنهم حتى أنكروا وجوده وجحدوه .

وقيل إن هذه الأسـماء إشـارة إلى صفات أفعـاله ، فهو الأول بإحسانه ، والآخر بغفرانه ، والظاهر بنعمته ، والباطن برحمته .

وقيل الأول بحسن تعريفنا إيـاه إذ لولا توفيقـه وهدايته أولا لما عرفناه ، وقيل هو الأول بالهداية ، والآخر بالرعاية ، والظاهر بالكفاية ، والباطن بالعناية .

وقيل الأول بالإسعاد والآخر بالإمداد والظاهر بالإمجاد والباطن بالإرشاد .

فصـــل

فى معنى « البـــر »

البر من أسمائه ورد به الكتاب فى قوله تعالى :

« إنه هو البر الرحيـــم » .

والبر هو المحسن ، وفلان بار بأبويه إذا كان محسناً إليهما ، والبر من الخلق من تتوالى منه أعمال البر ، ومن كان الله تعالى باراً به عصم عن المخالفات نفسه ، وأدام بفنون اللطائف أنســـه . ووفر فى طريقه اجتهاده ، وجعل التوفيق زاده ، وجعل قصده سداده ، ومنبع سلوكه[١] إرشاده . وأغناه عن أشكاله[٢] بأفضـــاله ، وحماه عن مخالفته بيمن إقباله[٣] . فهو غنى بلا مال ، وعزيز بلا أشكال . ملك لا يستظهر بجيش وعدد ،وغنى لا يتمول بعدد .

ومن آداب من عرف أنه البر أن يكون باراً بكل أحد لا سيما بوالديه لقوله عليه السلام : «رضا الرب فى رضا الوالدين،وسخطه فى سخطهما» .

وحكى أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه رأى رجلا قائماً عند ساق انعرش فتعجب من علو مكانه ، فقال : يارب بم بلغ هذا العبد هذا المحل ؟

فقال : إنه كان لا يحسد عبداً من عبادى على ما أتيته ، وكان باراً بوالديه . وقيل إن الحسن بن على رضى الله عنه كان لا يأكل مع أمه رضى الله عنها فقالت له فى ذلك ، فقال : أخشى أن يقع بصرك على شىء

---

(١) ناقصة فى م .

(٢) اشكاله يقصد بهـــا القشيرى هنا وفيما بعـــد ذلك بقليل امثاله من الخلق .

(٣) فى م جاءت (اقواله) ولا يستقيم المعنى بها .

من الطعام فأسبقك إليه ولا أعلم وأكون عاقاً ، فقالت له : كل معى يا بنى وأنت فى حلمن هذا .

واعلم أن بر التلامذة للشيوخ والأستاذين يجب أن يكون أكثر من برهم لوالديهم ، فإن الوالدين يحفظانه عن آفات الدنيا والشيخ يحفظه عن آفات الآخرة ، والأب يربيه بنعمته ، والشيخ يربيه بهمته .

فصــــل

فى معنى « التــواب »

من أسمائه سبحانه ، ورد فى الكتاب فى مواضع كثيرة منها قوله :

« واستغفره إنه كان توباً » .

والتوبة الرجوع من تاب ، وتاب وأناب وآب كلها بمعنى واحد[1]. ومعنى وصفه سبحانه بالتواب أنه يتوب على عبده أى يعود عليه بألطافه ، ويوفقه وييسرها له ، وقيل معناه قبول التوبة منه ، وقيل : خلقه التوبة له كما قال تعالى :

« ثم تاب عليهم ليتوبــوا » .

فعلم أنه ما لم يتب على العبد لا يتوب العبد ، فابتداء التوبة من الله تعالى بالخلق ، وتمامها عليه بالقول .

---

(١) فى رسالة القشيرى تفرقة بين هذه الثلاثة فالتوبة بداية والأوبة نهاية والانابة واسطتهما ، فمن تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة ومن تاب طمعاً فى الثواب فهو صاحب انابة ومن تاب مراعاة للأمر لا خوفاً ولا طمعاً فهو صاحب انابة ص ٥٠ .

فصـــل

فى معنى « المنتقـــم »

الانتقام افتعال من النقمـــة ، وهو غاية الكراهية للشيء ، وغاية العقوبة عليه أيضاً •

قال الله تعالى :

« وما نقمـــوا منهم •• » •

أى وما كرهوا ، « هل تنقمون منا » أى تكرهون ، فانتقام الله تعالى عقوبته للعصاة على ما كره منهم ، والكراهة فى وصـــفه سبحانه بمعنى ذم الفاعل والحكم عليه بالعقوبة ، لا بمعنى نفرة النفس ولحوق المشقة كما هو فى وصف العباد • والله تعالى يغضب فى حق خلقه بما لا يغضب فى حق نفسه ، فينتقم لعباده بما لا ينتقم لنفسه فى خاص حقه •

عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : إن العبد يكون له وقت طيب ، فيأمر الله تعالى جبرائيل أن يرفع ذلك عن قلبه اختباراً وامتحاناً ، فإن ضج وقلق رده إليه وزاده ، وإن لم يهتم لذلك لم يرده إليه وتكون بذلك نقمته • وقد يستجير العبد بربه عقيب زلته بلا فصل فتدركه[1] الوجهة قبل حلول الانتقام فيؤوبه الله تعالى إلى كنف ستره ، ويعجل له المغفرة بلطيف بره •

---

(١) فى م (فقد ادركه) •

فصـــــل

فى معنى « العفـــو »

مبالغة من العـــافى • والعفو له معنيـــان : أحدهما الفضـــل ومنه قوله تعالى :

« ويسألونك ماذا ينفقون قل العفـــو » •

يعنى ما فضل من أموالهم •

وقوله تعالى :

« حتى عفـــوا » •

أى كثروا •

ويقال : عفا مال فلان أى كثر ، فالعفو على هذا هو الذى يعطى الكثير ، ويهب الجزيل •

والعافى الذى يمحو وزيل ومنه قولهم : عفت الرياح الآثار إذا محتها بإزالتها ، فالعفو على هذا الماحى لآثار الذنوب ، والمزيل لهـــا بريح[1] المغفرة كما قال تعالى :

« يمحـــو الله ما يشاء ويثبت » •

قيل : يمحو الذنوب من ديوان الحفظة على أن ينسيها قلوبهم ، وقلوب المذنبين أيضاً • قيل إن رجلا من الصـــالحين قال يوماً : والله لا يغفر الله لفلان ، فأوحى الله تعالى إلى نبى ذلك الزمان أن قل لفلان قد غفرت لك وأحبطت عمل ذلك الحالف •

ومن عرف أنه سبحانه عفو طلب عفوه ، ومن طلب عفوه تجاوز عن

---

(١) مشتبهة فى م •

خلقه ، فإن الله تعالى بذلك أدبهم .

فقال جل جلاله :

« وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم » .

واعلم أن الكريم إذا عفا حفظ قلب المسىء عن الاستيحاش ووجهه عن الخجل ، فلا يذكره سوء فعله (كأنما الصفح قد نزع ذنبه والفضل قد كساه ثوبه)(٢) .

---

(٢) العبارة غير واضحة فى (س) .

فصـــل

فى معنى « الرءوف »

الرأفة شدة الرحمة ، كذا الرأفة (بالمد) الرحمة . وفى الحقيقة إرادة النعمة وتسمى الرحمة نعمة مجازاً ، فرحمة الله لعبـادة إرادته الإحسان إليهم من غير علة ، فالله أرحم بعباده من كل أحد ، ورحمته فى الدنيا عامة للمؤمنين والكافرين ، وهى فى الآخرة خاصـة بالمؤمنين . روى أن النبى ﷺ كان فى بعض الأسفار فمر بامرأة تخبز ومعها صبى لها فقالت : يا رسول الله بلغنى أنك قلت إن الله سبحانه وتعالى أرحم بعباده من الوالدة بولدها .. أفهو كما قيل لى ؟ قال النبى : نعم .

قالت : فإن الأم لا تلقى ولدها فى هذا التنور .

فبـكى رسول الله ﷺ وقال : إن الله تعـالى لا يعـذب بالنار إلا من[1] أنف أن يقول : لا إله إلا الله .

ومن رحمته بعباده أن يصونهم عن موجبات عقوبته ، وإن عصمته عن الزلة أبلغ فى باب الرحمة من غفرانه المعصية ، وربمـا رحم عبداً بما يكون فى الظاهر مشقة وشدة ولكنه فى الباطن نعمة ورحمة والعبد لا يعلم ، فكم من عبد يرثى[2] له الخلق لما به من الضر والفاقة وسوء الحال وهو فى الحقيقة فى نعمة تغبطه[3] عليها الملائكة . وقيل إن نبياً شكا إلى الله تعالى الجوع والعرى والقمل فأوحى الله تعـالى إليه : أما تعرف ما فعلت بك ؟ سددت عنك أبواب الشرك .

---

(١) ساقطة فى م ومثبتة فى س .

(٢) فى م وردت (يرحمه) .

(٣) فى م وردت (تغبطها) والأصح (تغبطه) .

ومن رحمته بعبده أن يصونه عن ملاحظة الأغيار فلا يرفع حوائجه إلا إليه . قيل لبعضهم :سل حاجتك فقال : من وضع قدمه على بساط المعرفة **لا** يحسن به أن يكون لغير الله عليه منة .

وقال رجل لبعض الصالحين ألك حاجة ؟

فقال : لا حاجة بى إلى من لا يعلم حاجتى !

فصـــل

فى معنى « مالك الملك ذو الجلال والإكرام »

قد سبق معنى الجلال فى اسم الجليل وأنه بمعنى استحقاقه للرفعة وصفات العلو .

ومن عرف جلاله تذلل وتواضع له ، جاء فى بعض الروايات أن لله ملائكة منذ خلقهم لا يفترون عن البكاء ، ولا تقطر من دموعهم قطرة إلا خلق الله تعالى منها ملكاً ، ولا يرفعون رءوسهم إلى يوم القيامة ، ويقولون : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك .

وقيل إن من حملة العرش ملائكة صورتهم كصورة العجل ، فمنذ عبد بنو إسرائيل العجل وضعوا أيديهم على وجوههم حياء من الله تعالى .
قال ابن الجلاء[1] كنت راكباً جملا فى وقت ، فقلت جل الله . فقال الجمل بلسان فصيح : جل الله !

وليس جلال الله سبحانه بأنصار وأعوان ، وسبب من الأسباب بل جلاله كونه بالوصف الذى تلحق به الرفعة والعزة وصفات العلو .

والإكرام قريب من معنى الإنعام إلا أنه أخص منه ، لأنه ينعم على من لا يكرمه ، ولا يكرم إلا من ينعم عليه . وإكرام الله عز وجل لعبده يكون معجلا فى الدنيا ومؤجلا فى الآخرة ، وعلى ما فيه من التقصير فإن الحق ينعم عليــه وهو يشــكو غيره ، ويرزقه وهو يخــدم غيره ويسأل غيره .

---

(١) هو ابو عبد الله بن الجلاء واسمه احمد بن يحيى أصله من بغداد ، وأقام بالرملة ودمشق وكان من جلة مشايخ الشام ، صحب النخشبى وذا النون وكان أستاذ محمد بن داود الدقى . يقول اسماعيل بن نجيد (كان يقال : ان فى الدنيا ثلاثة من ائمة الصوفية لا رابع لهم : الجنيد ببغداد وأبو عثمان بنيسابور وابن الجلاء بالشام) (طبقات السلمى)

فصـــل

فى معنى « المقسـط الجـامع »

المقسط العادل يقال أقسط إذا عدل ، وقسط إذا جار •

ومعنى العادل فى وصفه سبحانه وتعالى أن أفعاله كلها حسنة •

والجامع فى وصفه سبحانه وتعالى بمعنى الحاشر للخلق والناشر لهم يوم القيامة للثواب والعقاب ، فيجمع يومئذ لحومهم المتفرقة ، وجلودهم المتمزقة وعظامهم النخرة • وهو الجامع بين الأشكال والأمثال ، وبين المختلفات والأضداد ، من الجماد والنبات والحيوان ، فى صورها وألوانها وطعومها وروائحها ، ومنافعها ومضارها ، وأفعالها وأخلاقها بحيث لا يأتى التفصيل على آحادها فى مدى الأعمار ••• تبارك الله أحسن الخالقين •

فى خبر مسند أن الوحوش أو البهائم إذا حشرت يوم القيامة سجدت لله تعالى سجدة فتقول لها الملائكة : ليس هذا يوم السجود ، هذا يوم الثواب والعقاب ، وإنما حشركم لتشهدوا فضائح بنى آدم • فتقول البهائم والوحوش : هذا منا سجود شكر حيث لم يجعلنا الله تعـالى من بنى آدم •

وقيل لو أن رجلا له ثواب سبعين نبياً وله خصم بدانق لا يدخل الجنة حتى يرضى خصمه • وقيل يؤخذ بدانق فضة سبعمائة صلاة مقبولة فتعطى لخصمه • وقيل كما يرجو الظالم رحمة الله تعالى فالمظلوم يرجوها فإذا اقتص له من الظالم فذلك برحمة منه ، ولو لم يقتص له منه لكان قد رحم الظالم ولو لم يرحم المظلوم ، والحكيم العادل منزه عن ذلك •

وهو الجامع قلوب أوليائه إلى شهود تقديره ليتخلصوا عن أسباب التفرقة ، فيطيب عيشـهم لأنهم لا يرون الوسائط ، ولا ينظرون إلى الحادثات إلا بعين التقدير ، إن كانت نعمة علموا أن الله تعالى معطيها ، وإن كانت بلية علموا أنه كاشفها •

فصـــل

فى معنى « المغنى المغنى »

المغنى معطى الغنى لعباده ، ويكون بمعنى معطى الكفاية أيضاً ، والله تعالى مغن عباده بعضهم عن بعض لأن الحوائج — على الحقيقة — لا تكون إلا إليه ، فالمخلوق لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً .. فكيف يملك ذلك لغيره ؟ ولهذا قيل : تعلق الخلق بالخلق تعلق المسجون بالمسجون . وقيل : من رفع حاجته إلى الله تعـالى ثم رجع عن حاجته إليه إلى غيره[1] ابتلاه بالحاجة إلى الخلق ثم نزع رحمته من قلوبهم ، ومن شهد افتقاره إلى الله تعالى فرجع إليه عند حاجته ، أغناه من حيث لم يحتسب، وأعطاه من حيث لم يرتقب .

وإغناء الله تعالى عباده على قسمين : فمنهم من يغنيه بتنمية أمواله وهم العوام — وهو غنى مجازى ، ومنهم من يغنيه بتصفية أحواله وهم الخواص — وهو الغنى الحقيقى ، لأن احتياج الخلق إلى همة صاحب الحال أكثر من احتياجهم إلى لقمة صاحب المال .

---

(١) فى م (ثم رجع عند حاجته) .

فصـــل

فى معنى « المـــانع »

المانع فى وصفه سبحانه بمعنى منع البلاء عن أوليائه ، أو منع العطاء عمن شاء مطلقاً ، فإذا منع البلاء عن أوليائه كان ذلك لطفاً جميلا ، وإذا منع العطاء عنهم كان ذلك فضلا جزيلا .

حكى أن موسى عليه السلام قال : إلهى إنى جائع ، فأوحى الله تعالى إليه إنى عـــالم .

والله سبحانه يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولكنه لا يحمى قلب عبد عن المخالفات إلا وهو من خواص أوليائه .

فصـــــل

فى معنى « الضـــار النـــافع »

اسمان من أسمائه سبحانه وفى معناهما إشارة إلى التوحيد ، وهو أنه لا يصيب عبداً ضر ولا نفع ، ولا خير ولا شر إلا بمشيئته وإرادته ، وقضائه وقدرته • فمن استسلم لحكمه عاش فى راحة ، ومن أباه وقع فى كل آفة •

قيل : إن أول ما كتب الله عز وجل فى اللوح المحفوظ :

« أنا الله الذى لا إله إلا أنا ، من لم يستسلم لقضائى ، ولم يصبر على بلائى ،ولم يشكر على نعمائى ، فليطلب رباً سواى » •

وقيل : من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء •

ومن عرف تفرد مولاه بالإيجاد ، وتوحده فى الاختراع فوض أموره إليه ، فعاش فى راحة ، والخلق فى راحة ، وبذل النصح لكل واحد ، ولم يجد فى قلبه غشاً ولا خيانة لغيره •

ولا يرحم العبد عبداً إلا إذا رحمه الله تعالى •

قال تعالى لنبيه عليه السلام :

« فبما رحمة من الله لنت لهم » •

وقال النبى ﷺ : « الراحمون يرحمهم الرحمن » •

وسرق للحسن إزار فجلس يبكى ، فقيل له فى ذلك فقال :

إنما أبكى لأن مسلماً ستلحقه غداً عقوبة من أجلى ، ثم قال :

اللهم اغفر له •

فصـــــل

فى معنى « النـــــور »

النور من أسمائه سبحانه ورد به الكتاب فى قوله تعالى :

« الله نور السموات والأرض » .

قيل معناه : منورهما ، وقيل الهادى لأهلهما ، وقيل سمى نوراً لأن منه النور ، والعرب تسمى من منه الشىء باسم ذلك الشىء ، فإذا كان بمعنى المنور فهو منور الآفاق بالنجوم والأنوار ، ومنور الأبدان بآثار العبادات ، ومنور القلوب بالدلائل والحجج ، فالطـــاعة زينة النفوس والأشباح ، والمعارف زينة القلوب والأرواح . والله عز وجل يزيد قلب المؤمن نوراً على نور ، يؤيده بنور البرهان ثم يؤيده بنـــور العرفان ، قال الله تعالى :

« نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء » .

والله جل جلاله يهدى القلوب بنوره إلى محاسن الأخلاق ، ليؤثر العبد الحق ويدع الباطل .

وفى الخبر أن الله تعالى يحب معالى الأخلاق ويكره سفافها ، ومن معالى الأخلاق التحرز عن رق الأشياء ، واستصغار قدر الدنيا ، والجود بها على كل أحد ، فالله تعالى يحب كل جواد سخى .

وقيل إن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام : لا تقتل السامرى، فإنه سخى .

وقيل السخاء أن تجود على من لا يعرفك ، والسؤدد أن تنصف من لا ينصفك .

فصـــل

فى معنى « الهــادى »

الهداية فى اللغة الإمالة ، ومنه سميت الهدية لأنها تميل قلب المهدى إليه إلى المهدى ، أو لأنها تمال من ملك إلى ملك ، فالهداية إمالة القلب إلى الحق ، وقيل أصل الهداية فى اللغة التقديم ، ومنه سمى العنق هادياً لتقدمه على البدن ، فالهادى فى وصفه جل جلاله بمعنى المقدم لأهل الخير إلى الرتبة التى يستحقها ، والله عز وجل كما يهدى عباده إلى معرفته بحسن التعريف ، يهديهم إلى محاسن الأخلاق ومعالى الأمور بحســن التشريف ..

قال تعالى :

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » .

واعلم أن الهداية إلى حسن الخلق فرع الهداية إلى معرفة الحق لأن الدين شيئان : صدق مع الحق ، وخلق مع الخلق .

وقيل : حسن الخلق احتمال المكروه بحسن المدارة ، وقيل بسط الوجه ، وكف الأذى . وقيل : لا يبقى للكونين فى قلبك أثر .

وقال رسول الله ﷺ : « طوبى لمن بات حاجــاً وأصبح غازياً » ، قالوا : ومن هو يا رسول الله ؟ فقال : من كثر عياله ، وضاقت يده ، وحسن خلقه معهم ، يدخل ضاحكاً ، ويخرج ضاحكاً ، أنا منهم وهم منى ، وهم الحاجون الغازون فى سبيل الله .

وقال الفضيل بن عياض[١] : لأن يصحبنى فاجر حسن الخلق أحب إلى من أن يصحبنى عابد سيىء الخلق .

---

(١) الفضيل بن عياض خراسانى من مرو وقيل انه ولد بسمرقند ونشأ =

وقال رسول الله ﷺ : « الخلق الحسن طوق من رضوان الله تعالى فى عنق صاحبه ، مشدود إلى سلسلة من الرحمة ، والسلسلة مشـــدودة إلى حلقة فى باب الجنة ، حيثما ذهب الخلق الحسن جرته السلسلة إلى نفسها تدخله من ذلك الباب الجنة ، والخلق السوء طوق من سخط الله فى عنق صاحبه ، والطوق مشدود إلى سلسلة من عذاب الله ، والسلسلة مشدودة إلى حلقة فى باب النار ، حيثما ذهب الخلق السوء جرته السلسلة إلى نفسها لتدخله من ذلك الباب النار .

=بابيورد ومات بمكة سنة ١٨٧ هـ ، ويقال انه كان شاطراً يقطع الطريق بين ابيورد وسرخس وكان سبب توبته ان عشق جارية فبينما يرتقى الجدران اليها سمع تالياً يتلو : « الم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله » — فقال يارب قد آن .

فصــــل

فى معنى « البــديع »

البديع معناه المبدع ، فعيل بمعنى مفعل ، كأليم ووجيع . وكل من فعل فعلا فهو مبدع ، ومنه سميت البدعة بدعة لأنها قول لم يسبق إليه قائله فالله تعالى مبدع الأشياء لا على مثال تقدم ، ولا من أحد تعلم .

وقول البديع الذى لا مثل له ، وهذا أيضاً صحيح فى حق الله عز وجل ، والمبدىء فعيل بمعنى فاعل ، يقـــال بدأ الله الخلق وأبداهم فهو باديهم ومبديهم . ومن آداب من عرف هذا الاسم أن يجتنب البدعة ويلازم السنة .

والبدعة كل ما ليس له أصل فى الكتاب والسنة وإجماع الأمة . قال أبو عثمان الحيرى[1] : من أمر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة . وقال النبى ﷺ من أحب سنتى فقد أحبنى ، ومن أحبنى كان معى فى الجنة .

وقال سهل بن عبد الله التسترى : أصول مذهبنا ثلاثة : الاقتداء بالنبى ﷺ فى أفعـــاله وأخلاقه ، وأكل الحلال ، وإخلاص النيـــة فى جميع الأحوال .

وقوله تعالى :

« ويعلمهم الكتاب والحكمة » .

جاء فى التفسير أن الحكمة السنة . قال بعضهم : رأيت رسول الله

---

(١) أبو عثمان الحيرى اصله من الرى ورد نيسابور مع شاه الكرمانى والتقى بأبى حفص الحداد وتخرج به ، مات سنة ٢٩٨ هـ ، ويعد الحيرى من شيوخ الملامتية الكبار ، ومن أقواله : لايستوى ايمان الرجل حتى يستوى فى قلبه اربعة أشياء المنع والاعطاء والعز والذل — منذ أربعين سنة ما أقامنى الله تعالى فى حال فكرهته ولا نقلنى الى غيره فسخطته .

ﷺ فى المنام فقلت : يا رسول الله إشفع لى فقـال : قد شفعت لك ، فقلت متى ؟

فقال : اليوم الذى أحييت فيه سنة من سنتى قد أميتت .

قال ابن عباس رضى الله عنه : ما يأتى على الناس عام إلا أحدثوا فيه بدعة ، وأماتوا فيه سنة حتى تحيا البدعة وتموت السنة .

وقال النبى ﷺ : من مشى إلى صاحب بدعة ليوقره فقد أعان على هدم الإسلام .

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : لا تجالس أهل الأهواء فيحدثوا فى قلبك ما لم يكن .

وقال سهل بن عبد الله : من داهن مبتدعاً سلبه الله حلاوة السنن ، ومن ضحك إلى مبتدع نزع الله نور الإيمان من قلبه .

وقال أبو على الدقاق : من استهان بأدب من آداب الإسلام عوقب بحرمان السنة ومن ترك السنة عوقب بحرمان الفريضة .

واعلم أن بركة اتباع السنة توصـل العبد إلى حقـائق القربة ، وخصائص الزلفة .

قال تعالى :

« قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » .

فصــــل

فى معنى « البــاقى الوارث »

الباقى من أسمائه سبحانه وتعالى ، وحقيقته من له البقاء ، والبقاء صفة من صفات ذاته .

ومما يجب أن تشتد العناية بمعرفته أن المخلوق لا يجوز أن يكون متصفاً بصفات ذات الحق ، فلا يكون عالماً بعلم الحق ، ولا قادراً بقدرته ولا سميعاً بصيراً بسمعه وبصره ، ولا حياً بحياته ، ولا باقياً ببقائه لأن الصفة القديمة لا يجوز قيامها بالذات الحادثة ، كما لا يجوز قيام الصفة الحادثة بالذات القديمة ، وحفظ هذا الباب أصل التوحيد .

ومن زعم خلاف هذا فقد خرج عن الدين ، وانسلخ عن الإسلام ، وكانت بدعته أشنع من قول النصارى إن الكلمة القديمة[١] اتحدث بذات عيسى . هذه البدعة قول الحلولية الذين جوزوا على ذات الحق الحلول فى الأشخاص المحدثة ، وربما تعلقوا فى نصرة مقالتهم الشنيعة بقوله فى الخبر المشهور « .. فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً فبى يسمع وبى يبصر » ولا حجة لهم فيه لأنه لم يقل إنه يسمع بسمعى ويبصر ببصرى، بل قال فبى يسمع ... الخ ومعلوم بالانفاق أن ذاته المقدسة لا تكون للعبد سمعاً ولا بصراً ، فقد خرج ظاهره عن كونه مراداً بالاتفاق ، فوجب الرجوع إلى التأويل الصحيح دون الفاسد حتى إن من هؤلاء الجهال من يقول بأن معرفة العبد ليست بمخلوقة ، وإيمانه ليس بمخلوق ، وروحه ليست بمخلوقه . وأصل هذه البدعة قول من قال لفظ العبد وقراءة القرآن غير مخلوقة فلما جوز هذا القائل أن يوجد على لسان المخلوق قرآن قديم يسمع منه ، زاد عليه أولئك فى التدقيق وقالوا : إن العبد يكون باقياً ببقائه سبحانه .

والوارث الباقى بعد فناء الخلق .

---

(١) مشتبهة فى م .

فصـــــل

فى معنى « الرشـــــيد »

معناه المرشد ، فعيل بمعنى مفعل ، وإرشاده لعبده هدايته قلبه إلى معرفته ، وهو الإرث الأكبر الذى خص به أولياءه ، ويعد إرشاده عباده إلى اختيار طريق طاعته ، والتوقى بها عن مخالفته ، ثم إرشادهم إلى ما فيه صلاح حالهم من أسباب معاشهم .

قال الله تعالى :

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » .

وعلامة إرشاده الحق إلى إصلاح نفسه أن يحسن التوكل عليه ، ويفوض أموره بالكلية عليه ، وأن يستخيره فى كل شغل ، ويستجير به فى كل خطب ، كما أخبر عن موسى عليه السلام .

بقوله تعالى :

« ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل » .

هكذا ينبغى للعبد إذا أصبح أن يتوكل على ربه ، فلا يستقبله شغل إلا فزع فيه إلى الله تعـــالى ، وانتظر ما يرد على قلبه من الإشارة ، فيقضى أشغاله ، ويكفيه جميع أموره ، فإن رجع عن هذا بعد ما أرشده الله تعالى إليه عاتبه ، ليعلم أنه وجد فيه سوء أدب ، فيرجع عنه إلى سكونه وترك اختياره واحتياله . فالله تعالى أرشد نفوس الزاهدين إلى طريق طاعته ، وقلوب العارفين إلى سبيل معرفته ، وأرواح الواجدين إلى حقيقة محبته ، وأسرار الموحدين إلى تطلع قربته[1] .

---

(١) من هذا النص نتعرف الى راى القشيرى فى مراتب أهل الحق : زاهد ثم عارف ثم واجد ثم موحد ، ونتعرف الى ملكاتهم الباطنية نفس ثم قلب روح ثم سر ونتعرف الى غاياتهم فى كل مرحلة من مراحل معراجهم الروحى طاعة فمعرفة فمحبة فقرب .

فصـــــل

فى معنى « الصـــــبور »

الصبور فى وصفه سبحانه بمعنى الحليم ، وأصل الصبر فى اللغة الحبس ، ومنه « شهر الصوم شهر الصبر » لأن فيه حبس النفس عن الشهوات ، والصابر عن الشىء والصابر على الشىء كلاهما حابس نفسه عما يصبر عنه وعليه •

وفى وصف الله عز وجل بالصـــبر لا يقبح معنى حبس النفس ، (وإنما) يكون بمعنى تأخير العقوبة بالحلم •

والصبر فى حق العباد على ثلاثة أقسام(١) ، أولها التصبر وهو تكلف الصبر ومقاساة الشدة ، ثم الصبر وهو ســـهولة تحمل ما يستقبله من فنون القضاء وصروف البلاء ، ثم بعده الاصطبار وهو النهاية فى الباب ، ويكون ذلك بأن يألف الصبر فلا يحتمل مشـــقة ، بل يجد روحاً وراحة كما قيـــل :

تعودت مس الصـــبر حتى ألفته وأسلمنى حسن العزاء إلى الصبر

وقيل أيضاً :

صابر الصبر فاستغاث به الصـــبر فصاح المحب بالصبر صـــبرا

قيل : ليس الصبر ألا تذكر البلاء لفظاً ونطقاً بل هو ألا تعترض بقلبك على قضائه وقدره ، وإن ذكرت حالك له ، ورفعت قصتك إليه بلفظ لك • وقيل ذلك أن أيوب عليه السلام قال :

« إنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب » •

---

(١) لاحظ هنا الارتباط بين صنيع القشيرى فى الاشتقاق من الناحية اللغوية وبين المرادات الصوفية .

وقال : « إنى مسنى الضر » ، ومع هذا كله لما كان راضياً بقلبه ، غير مغير ظنه •

قال الله تعالى فى حقه :

« إنا وجدناه صابراً » •

وقال جماعة شرط الصبر ألا تتنفس بخلاف الإذن تحت جريان حكمه وقال قائلهم :

إن كنت لسقم أهلا وكنت لشكر أهلا
عذاب فلم يبق قلب يقول للسقم مهلا

وقيل حقيقة الصبر تجرع البلاء من غير تعبيس(٣) •

وقيل إن أيوب عليه السلام أوحى الله تعالى إليه يوماً من الأيام : يا أيوب شكوتنى ! ؟ فقال : إلهى ••• إلى من ولم يسمع أنينى ؟ •

فقال : شكوتنى إلى أعدى عدو لى وهو نفسك •

وقيل ينبغى أن يكون الصابر فى حكم الله عز وجل كالميت بين يد الغاسل يقلبه كيف يشاء •

وقيل الفرق بين الحليم والصبور فى وصف الخلق أن الحكيم من يتجاوز عن غيره بلا تكلف ولا مقاساة مشقة • والصبور هو الذى يراود نفسه عن أخلاقها ويتحمل كرهها •

---

(٢) هذه الأبيات انشدها أبو الحسين النورى أمام الجنيد .
(طبقات السلمى ترجمة النورى) .

(٣) فى م (تعبيس) والسياق يؤيد « تعبيس » وقد ورد النص بها فى رسالة القشيرى ضمن نص للجنيد يبدأ هكذا (المسير من الدنيا الى الآخرة سهل هين .... والصبر مع الله عز وجل أشد فسئل عن الصبر فقال تجرع المرارة من غير تعبيس) الرسالة ص ٩٢ .

حكى عن الأحنف بن قيس أنه كان يقول أنا صبور ،ولست بحليم مع أنه كان يضرب به المثل فى الحلم • وحكى عنه أن كان يجىء من موضع وإنسان يتبعه ، ويتسافه عليه ، وهو يصبر ، فلما قارب محلته وقف وقال لذلك الرجل :

إن بقى فى قلبك شىء فقله ، فإنى أكره أن يســمعك شبان قومى فيقابلونك بما تكره •

والصبر الواجب على العبد هو الصبر على ما أمر الله تعالى به من الطاعات ، والصبر عما نهى عنه من المحارم ، والسكون تحت ما يجرى من قضائه وقدره •

وفقنا الله تعالى لذلك وأدخلنا الجنة من فضله وكرمه ،

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيراً •

فهرست الكتاب

الموضوع ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٣/٧٤٥٨

* الترقيم الدولى I. S. B. N. 977—254—028—2